مِنهاجُ الدَّعوةِ إلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
فِي ضَوءِ البِناءِ التَّركيبِيّ لِصُورةِ المعنَى القُرآنِيِّ
سُورةُ النَّحلِ نموذجًا

إعداد
محمُود توفِيق مُحمّد سَعد
أستاذ البلاغة والنقد في قسم الدراسات العليا العربية - كلية اللغة العربية
جامعة أم القُرى بمكة المكرمة

خُلاصة البحث

الحمد لله رب العالمين وصلّى اللهُ وسلّم وبارَك علَى عبْدِهِ ونبيّه ورسُولِهِ سَيّدنا مُحَمّدٍ وعلَى آلِه وأزواجِه وصحبِه أجمعين كما يُحبُّ ربنا ويرْضَى إنّه حميدٌ مَجِيدٌ.

الهَمُّ الأعظم للدراسة استكشاف العلاقة بين البيان النظري لمنهاج الدَّعوة كما رسمته آية سورة (النحل): ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ وما اتخذته السُّورة من بيان عمليّ يتمثل في منهاجِ البناء التركيبيّ لصورة المعنى القرآني في هذه السورة. وبهذا تسعى الدِّراسة إلى تقديم منهاج في تأويل البلاغة القرآنية يَتجاوزُ دائرة النَّظر الجزئيِّ إلى دائرة النظر في السورة على هدي من موضوعها ومقصُودها، سعيا إلى العرفان بمدى اقتضاء الموضوع والمقصود منهج البناء التركيبيّ للسورة ،وكلّ ذلك على نحوٍ ممَّا هدَى إليه الأئمة من علمائنا المسلمين

والبحثُ يلتفت أيضًا إلَى بيانِ العلاقة الوظيفية بين سُورة (النحل) وسورة (النمل) وسورة (العنكبوت) وبيان مواقعِ كلٍّ في السياق الكلّي للمعنى القرآنيّ، والتلاؤم البديع بين البعد الوظيفيّ لكلّ سورةٍ من هذه السّور الثلاث، ومغزاها، وموقِعِ كلٍ، ووجه الابتداءِ بسُورةِ النحل والاختِتامِ بِسُورة (العنكبوت)

والله ﷻ هو المستعان على طاعته،وهو وحده المرتجى رضوانه

والحمد لله رب العالمين

اتساق سياق الخطاب الْبيانيّ ضرورةٌ بلاغيّة

لا يتأتى أن يُفهمَ حدثٌ ما قَولاً أو فِعلا إلاّ فِي سياقِه، وما قَدْ يَكونُ منْ أحداثٍ قوليّةٍ أوْ فِعلِيّةٍ تُعطِي ما ينفعُ وهي مقطوعةٌ منْ سِياقِها إخبارًا، فَإِنَّ ما تُعطِيهِ حينئذٍ من مدلولاتٍ يغلبُ عليْهِ الْعمومُ والْكليّة، فإذَا أُقيمَ فِي نسيجِ سِياقِهِ استحالَ الْمعطَى الأوّلُ (غيرُ السّياقِيّ) إلَى أمرٍ آخرَ إمّا تعيينًا أو اتّساعًا دلالِيًّا متلاحِظًا أي يَلحظُ كلُّ مُعطى الآخرَ بِحيثُ يتنادَى معه، ويستدعيه عند استحضار الأوّل، وهذا يغلبُ علَى الأحداثِ الْقوليّة والفعلِيّة فِي تشكّلِها الْكليّ، فكليّات البيانِ الْقرآني والنّبويّ مثلاً لا تُكدِي إذا ما سُمعتْ خارج سِياقِها إخبارًا، ولا خارجَ سِياقِها اسْتذكارًا ذهنيًّا، فكأنها صارت أمثالاً أو كالأمثالِ، واستثمار ذلك خارج السياقِ لا يحرمُ السّامعَ مِنَ الْعطيّةِ ؛ لأنّ ما فِيها من كليَّاتٍ المعنى يبقى، فإذا ما مُرِيتْ أخلافها داخل سياقها كانت أوفر وألطف، وأطرف عطاءً، أو بعبارةٍ أدقّ كانتْ قدرة الْمستقبلِ لها فِي سِياقِها أقوَى علَى رصدِ الدّقائقِ واللّطائفِ والطّرائفِ.

ولعلَّ نقَّاد الكلمة الشَّاعرة حين استمْجَدُوا أن يكونَ للبيت الشِّعريِّ فِي القصيدة نصيبٌ من الاستقلالِ بحيثُ لا يرتبط تركيبًا ببيتٍ يتلوه فيفتقرُ



إليْه افتقارًا كليًّا كانُوا أرغبَ فِي أن يكـون البيـت ذا عطـائين متفـاوتين قـدرًا ومقدارًا:

الأول عطـاء هـو التّبلّـغِ والكفايـة حـينَ يُـستجدَى وحـدَه منـزُوعًا مـن سياقِه.

والآخر: عطاءٌ هو الغُنية حينَ يُستجدى فِي ثبج سياقِه، إذ يكون عطـاؤه حينـذاك متكـاثرًا بـترداد النّظـر، متغـازرًا متناميًـا إذ يـسقى بـماءِ التبـصّر والتّذوق.

وهذا ما تلحظه على نظام البيان القرآني. يغلبُ على آياته القـدرة عـلى أن تعطى الآية وحدها مأخوذة من سياقِها، فهي حينذاك لا تدعك مفتقـرًا إلى غيرها، فإن شئت وفـيرًا مـن العطيـة، فاسـلكها في سـياقها، ومـارسْ حـسنَ البصر والتّدبر والتذوق تجدْ منها ما يفيضُ عن وعاء فـؤادك، فـلا يحاجزُهـا عن عطيتك منْ نعمائها إلا ضيق وعائك.

السّياقُ ذو أثرٍ بالغٍ فِي تكاثرِ المعاني فِي وعِي السّامعِ الراصد فوق أثره فِي ضبطِ معالمِ حركة العقلِ الْمستقبلِ تأويلاً لما يسْتقبلُ، إذ السّياقُ يمنحُ السّامعَ الْمستبصِرَ عطيتين رئيسَتينِ:

العطيةُ الأولَى: محاجزتُه عـنْ أنْ يُـصيبَه فـسُوقٌ عـن الْحـدّ فِي التأويـلِ بـما يتواءمُ مع الْكلامِ بِنْيَةً ومعنًى ومقصِدًا.



وهذه نعمةٌ تطهيرية لو اقتصر السّياقُ عليْها لكان عاليَ الْعطاء جودًا، ولكنه يشْفعُ تلكَ الْعطيّةَ لذلك الْعقلِ الْمسْتقبلِ بنعمة أجلُّ، هِيَ الْعَطِيّةُ الأُخرَى: نعمةُ الْقدرةِ علَى تكاثُرِ الْمعانِي، وتغازرها استنباطًا ممَّا هُوَ مسْتقبلٌ منَ الْبيانِ، لِما يتّسِمُ بِه الْبيانُ الْعالِي ،بَلْهُ الْعَلِيّ من فضيلة اتّساع الفضاء الدّلاليّ الذي يسْبحُ فِيه الْقولُ، وهو برغمِ اتساعِ هذا الْفضاءِ إلاَّ أنَّ حركةَ الْعقلِ والذَّوقِ فِي سبْحِهِ فِيه منْضبطَةٌ بالْعطيةِ الأُولَى،ولعلّ عطيّة الضَّبطِ فِي حركة التّلقّي والتّأويل الّتِي يُزجيها السّياقُ للعقل الُمستقبِل إنّما معدنُها تبرُّج (أيْ حصانة وقوّة) دَلالة الصّورة على الْمعنَى، بيْنما عطيّةُ اتساعِ الْفضَاءِ الدّلاليّ للقَولِ معدِنها حُسنُ دلالة الصورةِ على المعنى، وتمامُ تلك الدّلالة، فهذان: حسنُ الدّلالةِ وتمامُها لهما من الاقتدارِ علَى دفعِ الْحركةِ الْمنضبطة فِي فضاءِ دلالة القول، وهكذا تكونُ حركة العقل والذَّوق فِي استقبالِها القولَ مَليكةَ حريّةٍ مسْؤولةٍ مضبوطةٍ، فلا هِيَ بالمأسُورة الُمعطَّلة، ولا هِي بالطليقة الْمتمرّدة.

والبصرُ بأثرِ الغفلة عن السِّياقِ في تحريرِ الدَّلالة أيسرُ منه في تكاثرِ الدّلالة، ومن يغرسُ بصيرتَه في بعضِ ما جاء بِه أبو عبيدة معمرُ بنُ المثنَّى في كتابه (مجاز القرآن) من تأويل بعض كلم القرآن يُدركْ أنّ ما مُني بِه من



مجاوزة عن الصّوابِ جاءه من الغفلة عن السياقِ. ولو راجع السياق لرجع عمّا به أوّل.

والسياقُ النّازلُ هذه المنزلة، والمنتجُ ذلك الفعلَ فِي العقلِ المؤوّل لما يِسْتقبِلُ قد يكون سياقًا غير لسانيّ(مقام) وقد يكون سياقًا لسانيًّا، وهذا الآخر (المقاليّ/ البياني / اللسانِيّ) هو الأفعلُ والألطفُ، والأوّلُ متعدّدُ الأنواعِ، ولكنّ الآخر(المقاليّ/ البيانيّ/ اللسانيّ) متصاعد المستوياتِ.

تنوّع الأولِ أفقيٌّ، علاقاتُ التجاورِ عيارُه، وتنوعُ الآخر رأسِيٌّ، علاقاتُ التّصاعدِ والتّراكبِ والتّراكمِ عمادُه.

والنوعُ الأوّل (المقامِي) قد يُغنِي بعضُه عن بعضٍ، وقد يُقدّمُ بعضٌ علَى بعضٍ، وقد تغيبُ بعضُ أنواعِه بل إنّ من أهلِ النظر من غيبه من اعتباره مع حضوره فِي المدونة المعرفيّة، فلم يعتدّ بِه كما تلحظه في كثير من نتاج مدرسة "المنار" التفسيرية، فغير قليلٍ تغافلهم عمًدا عن بعضِ القرائن والسياقاتِ المقامية والاقتصار على السياق النصّي (المقاليّ / البياني/ اللساني)

أمَّا السّياقُ الآخر (المقاليّ) فلتراكيبِه لا يُغنِي بعضُه عنْ بعضٍ فضلا عن أنْ يُغيَّب بعضه، ولا يقدم مستوًى على ما قبلَه. بل فريضة أن يُلتزم بحركة التصاعد:



سياق الجملة / الآية / البيت

فسياق الفقرة/ النجم/ الصورة الكلية

فسِياق الفصل / المعقد

فسِياق النص: الخطبة/ السورة/ القصيدة...

فهذه مستويات سياقيّة، وهي أشبه بأربع دوائر تحيط الثانية (الفقرة) بالأولى (الجملة) والثالثة (الفصل) بالثانية (الفقرة، وما أحاطت به: الجملة) وتحيط الرّابعة (النص) بالثالثة (الفصل، وما أحاط بِه) فهي دوائر لا تتقاطعُ، بل تتداخلُ.

وليسَ تعيينُ السّياقِ المقاليّ الدّلالةَ، وعصمةُ السّامعِ الْمعافَى منْ داء الغفلةِ والجهالةِ والْهوى بمقصُورٍ عَلَى دَلالاتِ الْكلمِ، بلْ ذلك قائمٌ فِي دلالاتِ الكلام على تنوعِ مسَاحَاتِه التّرْكِيبيّة اتّسَاعًا. وإن يكنْ فعله في الكلم أظهر، وأقربُ إدراكا وكلّما اتسعت البنية التَّركيبيَّة كان أثر السياق أخفَى، وأبعد إدراكًا، ولكنّه ليس أضعف فعلاً، ففرقٌ لا يخفى بيْنَ لطف الفعل، وضعفه، ليس اللطف البتة آيةَ ضعفٍ، بل قد يكونُ من الّلطفِ قوةٌ وتمكّنٌ.

والوعْيُ بِأهميّةِ السّياقِ وأثرِهِ فِي التّلقّي والفهمِ ليسَ وليدَ نظرٍ مُحدَثٍ ممَّا يُعرفُ بـ"نظرية السّياق" بل ذلك أمرٌ أسبقُ من عصرِ التدوين، بل أسبقُ منْ عصرِ الروايةِ الشّفاهية جمعًا، وإن اسْتحالَ العرفانُ الفطريّ إِلَى نظريةٍ





علميّةٍ، وبسطُ القولِ وتشقيقه وتصريفُه في ذلك قد تكون العناية بِه ليست جدّ بعيدة في مسيرة الوعيِ بالسّياقِ وأهميّتِهِ.

وعلماؤنا يعرفون العلاقة بيْن السّباق(بالباء: الموحدة التحتية) واللّحاقِ والسّياق(بالياء:المثّناة التحتية) وأنَّ السباق ما جاور محلَّ النَّظر من القول تقدُّمًا، واللّحاقُ ما جاوره تأخرًا، وكلٌّ بحسبِه، فسباق الكلمة أو لحاقُها كلمة، وسباقُ الجُملةِ أو لحاقُها جملة، وسباقُ الفقرة أو لحاقُها كذلك فقرة، وسباق الفصل أو لِحاقُه فصل/ معقد...

أمّا السِّياق فهو الامتدادُ الِّلساني للقول من أوَّلِ حرفٍ فِيه إلى آخرِه، وهو دوائر أو مستويات، فهنالك سياقٌ جزئيٌّ قريبٌ، وهنالك سياقٌ كليّ مديدٌ...

إنَّ الوعيّ بالسّياقِ وأهميته فِطرةٌ لسانيّةٌ فهمًا، وإفهامًا، وهُو غيرُ خاصٍّ بلسانِ قوم دون قومٍ، وإِنْ يكنْ اللّسان الأرْقَى والأوسعُ فعلاً وحُضُورًا أهميّة السّياقِ فِيه أعظمُ، ولذا كانَ السّياقُ أقلّ منزلةً فِي كلامِ الدَّهماءِ لقلّة الاحتمالاتِ الدَّلالِيّةِ المُمكِنةِ لغلبَةِ المعانِي العقليّة (النفعيّة) علَى الأداء اللغويّ عندهمْ، أمّا فِي الأداء الفنّي(البلاغيّ/ الأدبي) كما فِي البيان الإبداعي:الشعر والنثر الفنيّ فَإنَّ أهميّةَ السّياقِ بضربيْهِ (المقاليّ والمقاميّ) تكون أكبر بكثير، ولا سيّما السّياق (المقالِيّ/ النّصّيّ).

وتبلغُ أهمية السّياق ذروتها في بيانِ الوحي قرآنًا وسنّة، ولاسيّما البيانُ القرآنيُّ، فالنِّظامُ البيانيّ لهذا الوحي الْقرآنيّ يتَّسِمُ بكثرَةِ الاحتمالات التأويلية الصَّحيحة المُمكِنة مع تفاوتِها قربًا وبعدًا، وجلاءً وخفاءً ولطفًا، فهو كما ورد به الخبرُ "حمالٌ ذو وجوه" أي ذو وجوه صحيحة، وذلك لاتساع نظامه البيانيّ وقوة نظمِه وتأليفه وإحكام تركيبِه، ولهذا اتسمت صور معانيه بالتّبرج والحصانة والمتانة لما في هذه الصور وسياقاتها المقالية والمقاميّة ما يحاجز العقلَ البصيرَ من التّردّي في التأويل الفاسد، والأخذ بوجهٍ لا وجودَ له في البيَانِ عندَ التَّحقق. ولهذا أكّد القرآنُ ضرورةَ مراعاةِ كلّ ما يحاجزُ العقلَ المعافَى من الغفلة والجهالة والهوى والعجلَةِ عنْ أن يرتابَ فيه. فلا يتراءَى منْه لخياله حسبانُ وجهٍ دَلاليٍّ لا يليقُ بكمالِ هذا الكتابِ ورفعتِه، وتنزهه عن كلّ ما يكونُ أهلاً لأنْ يرتابَ فِيه ذو حجرٍ، فقال في مفتتح "سورةِ البقرة": ﴿ ذلِك الكتابُ لا رَيبَ فِيه﴾ فتحقيقُ تلك السّمة الجْوهريّة في القرآن: ﴿ ذلك الكتابُ،لا ريبَ فيه﴾ توجبُ على كل متبصّرٍ متدبّرٍ أن يتترّسَ بكلِّ الْعواملِ الّتي تَعصِمُهُ مِنْ أن يَكُونَ مِنْهُ فِي تأوِيلِهِ مَا لا يُقارِبُ هذه الصفة:﴿ذلك الكتابُ لا ريب فِيه﴾ وما لا يقاربُ الوظيفة الرئيسية: ﴿هدًى للمتّقين﴾.



ومِنْ أبرزِ تلك العوامل السّياقُ المقاميّ علَى تنوعِهِ والسِّياقُ المقاليّ على تعدُّد مستوياتِه ودوائرِه بدءًا من "الجملة" وانتهاءً بالسياقِ الْقُرآنِيّ كلّهِ الْمُسْتفتَحِ بـ(باء) "البسملة" في أوّل سورةِ (أمّ الكتاب) والْمختتمِ تلاوةً ،لا تدبرًا بـ (سين) كلمة (النّاس) منْ قَولِهِ ﷻ:﴿مَنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ في آخر سورة (النّاسِ) فما بيْن هذه (الباء) وتلك (السين) لابدّ أن يكونَ ملحوظًا على مدرجة السّياقِ، لا يُوجدُ فيه ما يكونُ عندَ تحقيقِ النّظرِ الْقلبِيّ المعافى من داء الغفلة والتّعجّلِ والجهالة والهوى ما يُمكنُ أن يُحسبَ أنّهُ مباعِدٌ شيئًا هُوَ قائمٌ علَى مدرجةِ هذا السّياقِ الْممتدّ بيْن طرفيه المشارِ إليهما قبلُ.

والأصلُ فِي اتِّساقِ سياق القول فِي أيِّ بيانٍ له شَيْءٌ من خصائصِ السّموّ فِي الأداءِ إنْ كان بيانَ بشرٍ أو بيانَ وحيٍ أن يكونَ هذا الاتساقُ متحقّقًا فِي الجانبِ الجوانيّ للبيان تحقُّقًا لا يتأتّى الْقَولُ معه بِضعف هذا الاتساقِ فضلاً عنْ القولِ بانقطاعِهِ ،أمَّا تحققُ هذا الاتساق في البيان تحقُّقًا برّانِيًّا فيمكنُ أن يخفى خفاءً يحسِبُ العجِلُ نظرًا والْكليلُ بصَرًا أنَّ ثَمَّ انقطاعًا بيْنما يراه منْ هُوَ أغورُ بصرًا وألطفُ إدراكًا قائما فِي ذلك البيان ،وإن عجز بيانُه عن كشفِهِ.

اتساقُ السّياقِ النّصيّ ضرورة بيانٍ في كلّ خطابٍ بليغ، وإلا كان ذلك الخطابُ موصومًا بالانقطاع الذي هو الدَّاء الْمُبيرُ للجانبِ الوظيفيّ للبيان:



التّوصيلُ والتقريرُ والتَّفعيل.

هذه الثلاثةُ الوظيفية لكلّ خطابٍ بليغٍ تتهاوَى وتتداعَى إذا ما مُنِيَ الْخطابُ بانقطاع الاتساق السّياقِيّ

وآفة بعضِ النّاظرين حسبانهم أنّ ما لا يُبصرونه محكومٌ عليه بأنّه لا وجودَ له. يجعلون إدراكهمْ عيار الوجود ،وهذا غير قويم في منطقِ الْعلم. ومن هذا ندرك بعدَ من ذهب إلى أنّ البيان البليغ قد لا يكون متسمًا بالاتساق الجُوَّانيِّ لمجرَّد أنَّه لا يدركُه أو رأَى أنَّ محاولاتِ بعضَ العلماء الكشف عنه في بعضِ فنون البيان محاولات متسمة بالتَّكلف، فجعل من عدم إدراكه هو، ومن تكلّف آخرين في الكشفِ دليلاً على انتفاء هذا الاتساق السياقيّ، وهذا حكم على الأشياء من خارجها، وهو حيفٌ وجورٌ لا يطاق.

ومنْ أهل العلم منْ ذهب إلى أنّ دراسة بلاغة الخطاب على المستوى التجزيئي له أساليب يضمُّ كلّ أسلوبٍ إلى نظيره لا يكشف عن الفضيلة البيانيّة للخطاب، بل الْعَلِيّ أن يُدرسَ الخطاب كلّه باعتباره وحدةً بيانية متكاملة لا تقبل التجزئة.

يقُول ابن أبي الإصبع (ت:٦٥٤هـ):

" لَمَّا رأيتُ المؤلفين فِي الشّانِ لَمْ يذهبُوا مذهبًا يقُوم بِمثلِه علَى مخالِفِيهم الْبُرْهانُ لكونهم بوَّبُوا تواليفهم أبوابًا مُترجمةً بنعوتِ محاسنِ الْكلامِ الّذي





سماه المتأخرونَ بـ"البديع" وانتزعُوا آياتٍ تدخُلُ محاسِنها فِي تلك الأبـوابِ، ولمْ يعدِلُوا إلى سورةٍ بكمالِها، فيُظهِرُوا إعجازها بِالنّسبَةِ إلى قَصِيدةٍ فاضلةٍ أو خطبةٍ هائلـةٍ ؛لتنقطِعَ حجَّـةُ الزنـديقِ، وتبطـلَ دعـوَى كـلّ مـنْ خـرجَ عـنِ الطريقِ، فإنّا لو قالَ لَنَا بعضُ الزّنادِقَةِ إنّه مَا منْ قصِيدةٍ أو خُطبةٍ للعربِ إلا وَيَنْدُرُ فِيها الْبيْتُ الطّائلُ، والْمعنَى الْهائلُ، فأيُّ مزِيّةٍ لِهذَا الْكلامِ الْعظيمِ عَلى غيْرِهِ من الكلامِ. ولَوْ سلَكُوا غَيْرَ طرِيقهمْ فِي إظهارِ الإعجازِ لَما وردَ علـيْهم هذَا الدَّخلُ، ولما توجّه عَليْهم لِسببه الْملامُ "[1]

وهذا الذي صرح بِه ابن أبي الإصبع في القرن السابع أنت تجد شيئًا منه في صنيع القـاضي البـاقلاني في القـرن الرابـع، في كتابِـه إعجـاز القـرآن، وإن كانت ممارساته في نقد الشعر لم ترق إلى ما يليق بالشعر عامة وبالشاعرين: امرئ القيس والبحتري خاصة، ولو أنّه سلك سبيل النَّصَفة لهما لكان إبرازه المزية المحققة لإعجاز بلاغة القرآن أمكن، المهم أنّه التفت إلى أنّ الأمر ليس مردّه إلى شذرات من الأساليب البلاغية تجمع من هنا وهنالك، ثم تصنف، بل الأمرُ مبدؤه النَّظر في البناء النصّيّ.

مجملُ القول هنا أنَّ كلّ خطابٍ بليغٍ فيه محورٌ قصديّ تطوفُ المكونـات الخطابيةُ فِي معناها ومبناها حولَ ذلك الْمحورِ تلحظهُ، ولا تلتفتُ عنه.

---

(١) الخواطر السوانح فِي أسرار الفواتح لابن أبي الإصبع ،تحقيق: حفني شرف، - بيروت ١٩٦٠ ،ص ٧٢



ومنْ وراءِ هذا العامل الرئيس في تماسك بناء النصّ عامل كليّ آخر يتمثّل في سبك الصورة وحبكها، ولكنّ هذا العامل ببعديه لا يستغني البتة عن العامل الرئيس ،إذ هو مبنيّ عليْهِ

في كلّ سُورة من سُور القرآن مقصدٌ محوريٌّ يُمسك بمعاني كلّ آياتِها، وأعشارها ومعاقدها، وبمبانيها ومقاصدها المرحلية، وكذلك للسياق القرآني كلّه مقصدٌ محوريّ يُمسك بكل سوره، بل بكل آياتِه، ونجومه وفصوله، وما من آية أو نجم أو فصل أو سورة إلا وهو موثوقٌ بهذا المقصد المحوريّ، وهو المتمثل في الآية الخامسة من سورة (أم الكتاب):﴿ إيّاك نعبُدُ وإيّاكَ نستعين﴾ فكلّ معنى قرآنيّ في كلّ مُكوّنات البيان القرآنيّ على امتداده هو منسُولٌ من هذه الآية، وقد أعيد تصريف هذا المعنى والتصريح بِه على النَّسق نفسه في صدر سورة (الإخلاص/ الصمد) يقُول –سبحانة وتعالى-: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ شأنُ كلّ خطابٍ بليغٍ أن يكون سياقه متسقًا متناسلاً منْ رحمٍ والتفاوت بين ضروب البيان البليغ إنّما يكونُ فِي قدرِ إحكامِ العلاقةِ بيْن الْمحورِ القصديّ الواحِديّ، والتنوّعِ الْمعنَويّ المتعدّدِ، فكثرة الموضُوعاتِ وتنوعُ المعاني المرحليّة القائمة في مباني الفصولِ ثُم قُوّة التّواصُلِ ولطفِهِ وطرافته هو الّذِي يُحقِّقُ كثيرًا منْ عَواملِ التّميُّزِ والتفاضلِ بيْن ضُروبِ الْخطابِ البليغة.

ممَّا مضَى بيانُه ينكشِفُ لك أنّ الخطاب البيانيّ البليغ على امتداده لا يكون على شرف البلاغة إلاَّ إذا ما كان جاريًا على لاحبِ سياقٍ متسقٍ منْ أوّلِه إلى منتهاه. وبناءُ صورة الخطابِ الدَّالة على مكنونِه الجزئي والكليّ ذو مستويات متصاعدة، وهذه الدّراسة مَهمُومةٌ بإبرازِ مستوياتِ بناءِ صُورة المعنى القرآنيّ على ما هو قائمٌ في مدونة العقل البلاغيّ على اختلافِ مجالاته ومقاماتِه المَعرفِيَّةِ والْعِلمية. وحسنٌ أن تستهلّ النظر ببيان المراد بمستويات البناء،وبصورة المعنى القرآني.

بيان مستويات بناء صورة المعنى:

الصُّورة الدّالة على المعنى تكونُ بحسبِ المعنى إمَّا نظمًا، وإمَّا ترتيبًا، وإِمَّا تأليفًا، وإمَّا تركيبًا. وما هي بمستويات متعادلة أو مترادِفة أو متقاربِة بل يُبنَى الثَّانِي على الأوَّل، والثالثُ على الثَّانِي، والرَّابع على الثّالث، فأدناها هو النّظمُ، وأعلاها هو التَّركيبُ .

الأربعة الأُول (المستويات البنائية) نسقها عبد القاهر في هذا الموضع الاستفتاحيِّ نسقًا أَوْمَأَ بصياغتها إلى ما بينها:

نظمًا - وترتيبًا

تأليفًا - وتركيبًا.

مستوياتُ البِناء تبدأُ بالنَّظم، وتنتهي بالتَّركيب، وكلُّ مستوًى يطوِي فيه ما قبلَه من مستوياتٍ

والمستوى الأول (النظم)

هو توخِّي معاني النّحوِ فيما بيْن معانِي الكَلِمِ فِي بِناء الجُملة عَلَى حسبِ الأغراضِ والمعاني الّتي يُقالُ لها الْكلامُ .

على نحو ما تراه في قول الله ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (الفاتحة:٢-٤) هذه الآيات إنما هي جملة واحدة تكونت من مسند إليه (الْحَمْدُ) ومسْندٍ(لله) وتوابع نعتيّة.فالعلاقاتُ القائمة بيْن مكونات هذه الآيات ثلاث علاقات:

علاقةٌ إسنادية (بيْن ركني الجملة:الحمد لله)

وعلاقة تقييدية في (ربّ العالمين)

وعلاقة تبيينيّة (في النعوت لاسمِ الجلالة المجرور باللّام)

والمستوى التالي له (الترتيب)

وهو توخّي ما يكون بيْن معاني الجُمل من علاقات غير الإعرابية (أي ما يكون بيْن المعاني الجزئية القائمة في كلِّ جملةٍ) في بناء الصّورة الكلية: (النجم/ الصورة الكلية/ الفِقرة) عَلَى حسبِ الأغراضِ الّتي يُقالُ لها الْكلامُ. ويدخلُ في هذا ما يقع بيْن الجمل من كمال الاتصال، وشبهه.

والمستوى الثالث: (التأليف)

وهو توخّي ما يكون بيْن معاني النُّجومِ/ الصُّورِ الكُليّة/ الفِقَرِ من علاقات في بناء المعقد / الفصل عَلَى حسبِ الغرضِ المرحليّ الّذي يُقالُ له الْكلامُ.

كلّ معنى جزئيّ لصورةٍ أو نجمٍ أو فقرة يتآلف مع سِباقِهِ ولِحاقِه على لاحبِ السياق وصُولاً إلى الفصل/ المعقد ذي الغرضِ المرحليّ.

التأليف إذن هو ما بيْن معاني الصُّور الكلية من علاقات توجب نسقها في بنية المعقد. ومَعنَى الصُورةِ الواحدةِ مكونٌ من معاني الجُمل المُكوّنة للصُّورة (النجم/ الفقرة)، كما أنَّ معنى المْعقِدِ (الفصل) الوَاحِدِ مكّونٌ منْ معانِي الصُّورِ، وهذا التناسقُ بيْن معاني الصُور أسميه تأليفًا، لأنّه أوغلُ فِي اللطفِ، وذلك شأن التأليف.

وممَّا هُوَ قويَّ الدّلالة على هذا ما تراه في نسق آيات أحكام المُعاملاتِ الماليّة في سورة (البقرة) تبدأ الآياتِ بقول الله ﷻ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٦١ ليختم هذا المعقد بقوله ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ البقرة: ٢٨٣ .

والمستوى الرّابع (التّركيب) :

وهو توخّي ما يكون بيْن معاني المعاقد (الفصول)(أي الأغراض المرحلية/ الجزئيّة للمعقد) من علاقة في بناء النصّ (السورة في البيان القرآني أو القصيدة، الخطبة... في بيان الإبداع البشريّ) عَلَى حسبِ ما لهذا

النصّ من غرضٍ محوريّ رئيس، ومقصودٍ أعظم، ومغزى مركزي يُساق له الكلامُ كلّه.

من هذا ما تراه من نسقِ معاقد سُورة البقرة ،وقد تكلم العلماء في هذا وأبانوا عن الأقسام(المعاقد) التي تركبت منها السورة.

البناءُ التَّركيبيّ هُو المرحلةُ النِّهائيّة العُليا لبناءِ النّصّ ووجودِه البيانِيّ، وحسن فهمِهِ هو الخطوةُ الأُولَى لحسنِ فهم التأليف ثُم الترتيبِ ثُم النظم. وحسنُ فهم الخواصّ النَّظمية في بنية الجملة لا يكونُ إلاّ فِي ضَوءِ الغَرضِ المُساقِ لَه الكلامُ كما يقولُ عبدُ القاهرِ، وهذا الغرضُ المساقُ له الكلامُ لا يعرفُ تحريرُه وضبطُه إلاَّ مِنْ خِلالِ حُسنِ النّظرِ في البناءِ التَّركِيبيّ للنَّصِّ.

والنظر المتدبر في السّورة إذنْ يتخذ منهاج الحالّ المرتحل، يتزَّود من كل مرحلة زادًا للأخرى جيئةً وإيابًا.

ولكلّ نصّ بليغٍ سواءٌ كان من بيان الوحي قرآنا وسنة أو مِنْ بيان الإبداع شعرًا ونثرًا فنيًّا بناءٌ نصيّ(أي بناء تركيبي) ولكلِّ بناءٍ خصائصُه، فليست الأبنيةُ التركيبيَّةُ في نتاجِ شاعرٍ ما على نمطٍ واحدٍ، بل تكادُ كلُّ قصيدةٍ لبنائِها التركيبي (النصّي/ الكلّي) خصائصُ تميزه من غيره في قصيدة أخرى للشاعر نفسِه، وكذلك الأمرُ في البيان القرآنيّ المعجز، بل تميُّز السّور في بنائها التركيبيّ(النصيّ) أعظمُ،وخصائصُه أوفرُ.

تكامل سورة النحل وسورة النملِ والعنكبوت موضوعًا ومغزى:

لسورةِ (النحلِ) وسورة (النملِ) وسورة (العنكبوت) خصُوصية بالغة بأمرِ الدَّعوة إلى الله ﷻ، فهذه السُّور بيْنها تكاملٌ في رسم منهاج الدعوة وأدواتِها وآدابها، ونحنُ هنا معتنون بسورة (النّحل)، ولعلي أفرغ لتدبر كلٍّ من سورة(النمل) وسورة (العنكبوت).

سُورة (النَّحل) سورة ترسُم منهاج الدَّعوة إلى وحدانية الله ﷻ بالحكمة والموعظة الحسنة، وترسُم منهاج الجدال بالتي هي أحسن.

مقصُودها الأعظم هو **بيان منهاج الدَّعوة إلى وحدانية الله ﷻ وكمال قدرته استدلالا وامتنانًا بنعمائه وآلائه** وسيكون لها مزيد اختصاص بالنظر.

وأما سورة (النَّمل) فترسُم أداة الدَّاعية إلى وحدانية الله ﷻ: العلم والحكمة، ولذا كثر فيها التَّصريح بهاتين الأداتين وكذلك التلويح.

ولعلَّ قوله ﷻ في صدر السورة: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ النمل: ٦ وقوله ﷻ: في شأن سيدنا موسى ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ النمل: ٧ وقوله ﷻ ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ النمل: ١٣ – ١٤ وقوله ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ النمل: ١٥ ولعل مقال النَّملة: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ النمل: ١٨ ومقال الهدهد: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ النمل: ٢٢ ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ

أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ النمل: ٢٧ ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ النمل: ٢٨ ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ النمل: ٣٢ ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ النمل: ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ النمل: ٣٥ ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ النمل: ٤٠ ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ النمل: ٤٢ ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ النمل: ٤٤ ثم تأتيك الآيات المستفتحة والمختتمة بالاستفهام:

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ النمل: ٦٠ إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ النمل: ٦٦ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ النمل: ٧٤ – ٨٢ ثم يختم السورة بقوله جل جلاله: ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ النمل: ٩١ – ٩٣ في ما سبق إيراده من الآيات تبْصرُ حضور العلم والحكمة جليًّا حينا وخفيًا حينا.



وهذان: العلم والحكمة هما زاد الدّاعية، فعلمٌ بلا حكمةٍ قد يكونُ سببًا في المضرَّة، والفتنة، على ما تراه في حركة الحياةِ من حولك، فالحكمةُ تضبطُ فاعلية العلْم في الحياةِ، وبهذا يستحيلُ العلمُ نافِعًا، وكمْ من داعيةٍ هو خزانةُ علمٍ، ولكنَّه مفتقرٌ إلى الحكمة، فتقعُ بعلمه الذي يبثّه في غير موضِعه وأهله ومنهجه فتنٌ لا تطاق.

ومن العلم والحكم يخرج الهدى والبشرى، فشأن الدَّاعية أن يبدأ بالعلم والتعليم، وبالبُشرى من قبل الإنذار والتخويف، فالتقرّب بما فيه التَّحببُ والتَّودّدُ أوفقُ بحال الدَّاعية من البدْءِ بالتَّرهيب والتَّخويف، ولذلك تُبصرُ في مفتتحِ سُورةِ (أم الكتاب) دلائلَ الرَّحمة والتَّحببِّ والتَّلطّفِ تسبقُ دلائلَ التَّرهيبِ والتّهويلِ.

يقُول البقاعي:" فالمقصود الأعظم منها إظهار العلم والحكمة كما كان مقصود التي قبلها إظهار البطش والنقمة، وأدل ما فيها على هذا المقصود ما للنمل من حسن التدبير، وسداد المذاهب في العيش، ولا سيما ما ذكر عنها سبحانه من صحة القصد في السياسة، وحسن التعبير عن ذلك القصد، وبلاغة التأدية""[(١)]

وأما سورة (العنكبوت) فالبصر بآخر آيات سورة القصص يهدي إلى ما تقُوم سورة العنكبوت لتفصِيله وتقريره. يقُول الله ﷻ في آخر سورة القصص:

---

(١) نظم الدرر البقاعي مفتتح تفسيره سورة النمل: تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي ط: دار الكتب العلمية بيروت: ١٤٠١٥هـ ، ج٥/٤٠٥



﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ القصص: ٨٥ – ٨٨ هذه الآيات صريحةٌ في الدعوة إلى أن يستمسِك النبيُّ ﷺ والذين آمنوا معه بما أنزل الله ﷻ، وألاَّ يصدَّهم عنه شيءٌ، وأن يخلصُوا أمَّهُم وقصْدهمْ لله ﷻ فكلُّ شيْءٍ هالكٌ إلا وجهه له الحكم، وإليه المرجع.

وفي هذا من التثبيت أمام المحن ما فيه، ولهذا جاءتْ سورة (العنكبوت) بعدها لترسمُ العزيمةَ والإصرارَ على المضيّ إلى الغاية، واحتمال الابتلاء. وما مِن داعية صادقٍ لا يبغِي غير وجهِ الله ﷻ إلا وقد أُقيم في البلاء، ولكنّه المنتصر في مآل أمرِه، وأمر دعوته: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ العنكبوت: ٢ – ٣....[1]

ويأتي ختام القول في السورة: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ العنكبوت: ٦٩ وذلك ذروة المعنى القرآن في ترقيه وتصاعده على لاحب مساق السورة. فتبصر وشائج القربى بين المفتتح والمختتم، تدركْ ما الذي تساق إليه آياتُ سورة (العنكبوت)

(١) مصداق هذا الآيات رقم: ٢- ٧، ١٠- ٤١، ١٣- ٤٢٥٦- ٦٤، ٦٠، ٦٩ مضافا إلى ذلك قصص الأنبياء الواردة في السورة، وما كان من فتنة ثم انتصارٍ للحق، كل ذلك دلاله صريحة وسائر السورة فيه إلاحة إلى أمر الفتنة وانتصار الحق: .

وقد أبانت السورة مصائر الأُمم التي اتخذت من دون الله ﷻ معبودًا تتقرب إليه وتحتمي به، فكانت كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا هو بيت الهُلكة والفناء.

يقُول البقاعي:" مقصودها الحث على الاجتهاد في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعاء إلى الله تعالى وحمده من غير فترة، كما ختمت به السورة الماضية، من غير تعريج على غيره ﷻ أصلاً، لئلا يكون مَثَلُ الفَرْدِ عند المتعوض عوضاً منه مَثَلَ العنكبوت، فهي سورة ضعف الكافرين وقوة المؤمنين، وقد ظهر سر تسميتها بالعنكبوت وأنه دال على مقصودها) [1]

السورة أبانت مصائر الأُمم التي اتخذت من دون الله ﷻ معبودًا تتقرب إليه وتحتمي به، فكانت كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا هو بيت الهُلكة والفناء.

هذه الثلاث السّور ترسم برنامجًا قرآنيا لبناء الدّاعية المسلم.

وتلحظُ أنَّ سُورة المنهج (النَّحل) قد سبقت في سياق التَّنزيل والتَّرتيل أيضًا، تلاها سُورة الأداة (النَّمل) في السياقين، ثم كان الختم بسورة آداب ممارسة الدعوة وأخلاقها (العنكبوت)

وأنت إذ تنظر في ما سميت به كلّ سورة وعلاقة ذلك بمقصُود السورة وموضعها تبصرُ لطيف التَّناسب، فقيمة (النحل) في منهاج حياته، وما

---

(١) نظم الدرر البقاعي مفتتح تفسيره سورة العنكبوت: تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي ط: دار الكتب العلمية بيروت: ١٤٠١٥هـ، ج: ٥ص ٥٣٣



يثمرُه ذلك المنهاج: تُمَثِّلُ حشرة (النحل) نموذجًا متميزًا فِي العمل الجمعي، وانّه ما مِن واحدة منها إلا وهي شريكٌ مشاركة فعلية في العمل، وذلك شأنُ أمر الدَّعوة، لا يثمر العملُ الفردي فيها، بل العملُ الجماعيّ هو الذي يُزهرُ ويثمرُ، وقد أدرك المبغضُون للإسلام وأهله ذلك، فتنادوا بتجريم العمل الجماعيِّ في الدَّعوة والمُمارسة، وتساهلوا مؤقَّتًا في العمل الفرديّ لعلمهم بأنّ أزهاره تتساقطُ، فلا تثمرُ.

وقيمة (النّمل) تتمثل فيما يصوره مشهد النملة حين رأت سليمان عليه السلام وجنده، وما كان منها في تحذير قومها، ممَّا حمل سيدنا سليمان عليه السلام على أن يتبسَّم من قولها. فالعلم والحكمة ظاهران في أمرها أكثر من ظهورهما في أمر (الهدهد) فالهدهد قال:﴿ أحطت بما لم تحط به﴾ وهذا لا يصلح أن يكون من الدّاعية في أمر الدعوة، ولكن ما قالته النملة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ النمل: ١٨ فهو من أكثر الحشرات فطنة وحكمة وحرصًا واتخاذًا للأسبابِ والجلد والعزم فهي تحملُ أضعاف أضعاف وزنها، والداعية أحوج ما يكون إلى هذه الأدوات في مسيرته بالناسِ إلى ربهم سبحانه وتعالى، وبصرك بقولها ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من أنفع ما يكون للداعية في أدب تعامله مع من يدعو، فلا يتسارعنّ إلى سوء الظن بمن يدعو، ولينظر إليهم على أنهم كالمرضى الذين هم أحوج إلى الرفق، وتبسم سيدنا



سليمان عليه السلام من قولها ،وهو الذي منحه الله سبحانه وتعالى نعمة الفهم عنه ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾الأنبياء: ٧٩ دالٌ على أنّه أبصر ما في حالها من العلم والحكمة، فحال هذه النملة هو أليق بحال الدّعوة لما فيه من العلمِ والحكمة والحيطة، وحسنِ الظّن الذي يستولد تأليف القلوب، فتقبل أو تلقي السمع.

أما شأن العنكبوت: أنثى العنكب فلها من الأحوال ما يلفت البصائر، ولانشغل هنا إلا بشأن بيتها الذي هو محلّ العبرة في السورة، فأهل العلم بحال هذا الكائن يؤكدون أنّ هذا البيت يصنع من خيوط هي في نفسها أقوى مِنَ الفولاذ ،وأنّ هذا البيت إنما وهنه ليس فيما صنع منه، وإنما وهنه فيما صنع له، اتخذته بيتًا، فلم يتحقق لها ما تُصنع له البيوت: السكينة والأمنة والتكافل الأسري،والسلام الاجتماعيّ ،كل هذا مفقود في بيت العنكبوت، ولذا لم يسمه الله سبحانه وتعالى مسكنا كما قال في شأن النمل ﴿ادخلوا مساكنكم﴾ فبيت النمل تتحقق فيه السكينة، أما بيت العنكبوت فخواء من السكينة، وهي لا تبنيه إلا عند التَّزواج، فإذا تم التلقيح من الذكر قتلته، وأخذت بيضها إلى محل آخر، فمن اتخذ من دون الله سبحانه وتعالى ملجأً فقد كان اتخاذه هذا كمثل اتخاذ العنكبوت هذا البيت، هو بيت الفناء والدمار والهلكة، وفي هذا تعليمٌ للداعية ألا يتخذ من دون الله سبحانه وتعالى ملجأ يحتمي به إن

هو أقيم في سياق ابتلاء، وهو لابدّ أن يُقام فيه، فتلك سنة الله ﷻ فحذار من بيت العنكبوت، حذار من أن يُتخذ غيرُ الله ﷻ ملجأ، فمن اتخذ الله ﷻ وحده ملجأً كان له ما وعد به الله ﷻ في ذروة السورة﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾ العنكبوت: ٦٩ تأمل هذا الوعد العظيم الذي ختمت به السورة إن أسكنه الداعية قلبه، وأفعمه بنوره ويقينه فإنه لا تثنيه عن غايته كل أعاصير الابتلاءات وزلازلها، وتأمَّل التَّآخِي البديع بين ما خُتمت به سورة العنكبوت، وما ختمت به سورة النحل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨ ﴾ النحل: ١٢٨ كذلك تَتبيَّنُ لكَ العلاقةُ الموضُوعيّة بيْن هذه الثَّلاث السُّور، ولعلَّ في اختصاصها بأن سُميت كلٌّ باسم "حشرة" لفتًا إلى أنّ فيها ما يجمعها. وقد بيّنته لك على الإجمال الذي اقتضاه المقام.

البناء التركيبيّ لسورة النحل، وتساوقه مع منهاج الدعوة:

سُورةُ "النّحل" سُورةٌ ذاتُ خُصوصية في تبيانِ مِنهاجِ الدَّعوة إلى الله ﷻ ومجادلة الآخر بالّتي هِي أحسنُ، مِن خلال بناء الدَّلائل والأدلة على وحدانية الله ﷻ وكمال علمه وقدرته. ومن خلال نقضِ شبهات الآخر نَقضًا محيطًا بصورٍ مثلى للجدال بالتي هي أحسن، فإذا ما دَرَسَ الدَّاعيةُ مِنهاج السُّورة في ذلك، وهُو مِنهاجُ يَظهر لطيفًا قويًّا في نسقِ بناء السورة،



فإنّه يمتلكُ القُدرةَ علَى حُسنِ الدَّعوة إلى الله ﷻ ومجادلةِ أهلِ الشّبهات بالّتِي هِيَ أحسن.

تقسيم القرآن الكريمِ إلي سور- وهو توقيقيٌّ- كافٍ لمن تدبّرَ أسرارَ التَّقسيم، ومنها ما قالَه الزّمخشريّ من " أنَّ التّفصيلَ سببُ تلاحقِ الأشكالِ والنَّظائرِ وملائمةِ بعضِها لبعضٍ، وبذلك تتلاحظُ المعاني ويتجاوبُ النظم "(١)

فقوله هذا يُشيرُ إلي أنَّ كلَّ سُورةٍ قد حوت مجموعةً من المعاني المُتلاحظةِ. وجميلٌ منه التَّعبير بتلاحظ المعاني وتجاوب النَّظم، فهُوَ ممّا يُعطي أنّ السُّورةَ راميةٌ إلَى غايةٍ تَتلاحظُ المعاني فِي مسيرتها إليها، وتتناسبُ، وتتناغَمُ العناصرُ دقيقُها وجليلُها، فترَى نظمًا متجاوباً، وهذا دالٌّ على أنَّ بيْن مُكوِّنات السُّورة، على تنوعها وتعدّدها علاقاتٍ جوانيَّةً جديرةً بحسنِ التدبّرِ.

ومن الحَسَنِ أن أشيرَ هنا إلى أمرٍ عامّ في تشابك المعاني القرآنية، ذلك أَنَّهَا معانٍ قائمةٌ علاقاتها على أساسٍ كليّ هو أجناسُ المعاني وأنواعها:

ثَم معانٍ هي أجناسٌ عامة لسائرِ معاني القرآن كلّه.

وثَمَّ معانٍ هي أجناسٌ لسائرِ أنواعِ المعاني في السورة. بمعنى أنَّ هنالك معنًى هو كالجنسِ لأنواع معانٍ مبثُوثة في كثيرٍ من السُّور، فهي تربطُ بهذا الأصلِ ارتباطَ النَّوعِ بالجنسِ.

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل – ط : دار المعرفة بيروت – ١٤٢٣هـ ص ٥٩





وثَمَّ معنًى هو كالجنس لأنواعِ معانٍ مبثوثة في سورتِه التي ورد فيها، وقد يكون هذا المعنى الذي هو جنسٌ لمعانٍ في سورة متعينةٍ هو نوعٌ لمعنى هو جنسٌ كليّ ، فَثم ما هو معنى كالجنسِ العامّ، وما هو كالجنس الخاصّ في سُورة معينة.

إذا نظرت في معاني سورة الفاتحة ألفيتها أجناسًا كليَّة لأنواع معاني القرآن الكريمِ كلّه بدءًا من سورة "البقرة" وانتهاءً بسورة "الناس"

وإذا نظرت في كلِّ سورة ألفيت فيها معنًى هو كالجنس الكليِّ الخاصّ بهذه السورة، ويرتبط بِه سائرُ معاني السورة ارتباط النوع بالجنس.

في سورة (النَّحل) ستجد معنى هو جنسٌ عامٌ لأنواعِ معاني سورة (النحل) خاصّة، وهذا ما أشير إليْه في المباحثِ القادمة:

سورة (النحل) مكيّة من ثمان وعشرين ومئة آية تكونت من ثلاثة معاقد (فصول)، ومقدمة وخاتمة، وكلُّ معقدٌ مكوّن من جملةٍ من الآياتِ. ولكلّ معقدٍ غرضٌ مرحليّ يجري على لاحبِ مساقٍ مديدٍ إلى مقصدٍ محوريّ تقوم عليْه السورة كلُّها، وهو ما يُسميه أهلُ العلم بالبيانِ الْقُرآنِيّ المقصد والمغزى الأعظم، ونعتُه بالأعظم دالٌ على أنَّه جامعٌ للمقاصدِ (الأغراض) المْرْحَليّة أيْ الّتي تقومُ عليْه المعاقِدُ، فلكلّ معقدٍ غرضٌ، وموضوعٌ تدورُ معانيه عليه، وهذه الأغراضُ والموضوعاتُ المتعدّدةُ في السُّورة الواحدة



تدورُ على محورٍ مركزيٍّ هو المقصُود الأعظمُ، وهو بمثابةِ روحِ السُّورة السَّارِي في كلِّ مكوّنٍ مِن مكوناتها. يظهرُ ذلك حينًا، ويكونُ البيانُ عنه في السُّورة ظاهرًا، ويكونُ حينًا البيانُ عنه لطيفًا، لكنَّه مدلولٌ عليه بمستوًى مِن مستويات الدَّلالة ،وهي مُسْتوياتٌ متنوعة ومتفاوتة في درجاتِ الظُّهورِ والخفاءِ الّذي قد لا يدركه إلا الخاصّة



البيان الجُمَليّ لمعاقد سورة النَّحل:

سُورة(النحل) ذاتُ معاقد ثلاثةٍ تسبقها مقدّمةٌ ذاتُ براعةٍ استهلالية تنبئُ في لطفٍ عن المقصُود الأعظم للسورة. وتعقبُ تلك المعاقد الثلاثة خاتمةٌ تكرِّسُ البيانَ عن المقصُود الأعظم للسورة.

وهذا النهجُ ليس من خصائصِ بناءِ سُورة (النّحل) فهو نهج غالبٌ على سُور القرآن الطّوال والمِئِين، وبعض سورِ المفصل، ولكلِّ سُورة طريقتُها الخاصَّة في مقدارِ المقدمة والخاتمة، وفِي عددِ المعاقِدِ (الفصول)، فقد تطولُ المقدّمة، وقد تكُونُ آيةً واحدةً، وكذلك الخاتمةُ، وقد تكونُ السُّورة من معقدٍ (فصل) واحدٍ، وقد تتعدَّدُ المعاقِدُ (الفصول)

مقدمة سورة النحل قائمة من الآيتين الأولين (١-٢):

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾ النحل: ١ - ٢ **والمعقد الأوّل** من قوله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣﴾ (ي:٣) - إلى آخر قوله ﴿إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ (صدر الآية: ٢٢) وهو للامتنان بالنّعم والآلاء تدليلاً بها على الوحدانية وإحاطة العلم وكمال القدرة.

والمعقد الثاني: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ (النحل الآية: ٢٢) إلى ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٦٤﴾



(النحل الآية ٦٤) وهو معقودٌ لبيانِ اعتراضات وشبهات المعاندين والرد عليها وتقويضها.

والمعقد الثالث: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (ي٦٥) إلى قوله: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (ي: ٨٩): وهو معقودٌ لمثل ما عقد له المعقد الأول،ولكن بطريقة أخرى تصريفًا للامتنان والتدليل.

والخاتمة وفاصلة السورة من أول قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(ي: ٩٠) إلى خر السورة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (ي:١٢٨) وهي معقودةٌ لبيان مكارم الأخلاق وَتكْرِيسِ بيانِ منهاج الدعوة إلى الله والوعد بالعون والمعيّة لمن التزم وأخلص

وهذه الخاتمة شريجين: الشريج الأول تعقيبٌ على المعاقد الثلاثة ، وهو يختص ببيان مكارم الأخلاق التي على الداعية أن يتخلق بها ، وهي من الآية رقم(٩٠) إلى آخر الآية رقم(١٢٤)

والشريج الآخر ،وهو فاصلة السورة كلها تكثيف لأصولِ منهاج الدعوة إلى الله ﷻ وجزاء من أحسن اتخاذه ذلك المنهج (ي:١٢٥-١٢٨)

هذا بيان وجيز يخلّص محاور القول في البناء التركيبيّ لسورة (النَّحل)

ومن بعدُ يأتيك البيانُ التفصيليّ لهذا البناء التركِيبيّ لهذه السُّورة المنهاج ،وهو بيانٌ لا ينشغلُ بالنَّظر في نظّم الجملةِ أو الجمل والعلاقات النَّحويّة وغيرها في السّورة ، بل هو معنيٌّ ببيانِ التَّماسك النّصّي والبِناء التَّركيبيّ لمعاقد السُّورة، وفقًا للغرضِ والمقصدِ الرَّئيسِ الأعظمِ للسُّورة المساقِ له بيانها:كلمة وجملة وآية، ومعقدًا.

البَيان التفصِيليّ للبناء التّركيبيّ لسورة "النّحل"

المقصُود الأعظم لسورة النحل:

القولُ بأنّ لكلّ سُورةٍ مقصُودًا أعظمَ إنّما مخرجُه اليقينُ المؤسَّس على حسن التَّدبّر في البيان القرْآنيّ المُثمرِ أنّ تقسِيم القرآن الكريمِ إلى سُورٍ ذات مفتتحٍ ومختتمٍ متضمنة جمعًا من الآيات ذات الطابعِ البيانيّ الخاصّ لا يستقيم فطرةً بيانيّة أن يُقال إنّ هذه الآيات في السّورةِ متشاردةٌ لا مرجع ترجع إليْه أوْ لا مأمَّ تؤمُّه، ولا مقصدَ تسيرُ إليه ،وأنَّ كل آية ترمي إلى غير ما ترمِي إليه قرينتها. لا يكون البتة ذلك في بيانٍ عالٍّ من بيانات البشر، بَلْهُ البيان العليّ المعجز.

الفطرة البيانية تطمئنُّ إلى أنّ في السُّورة ما هو مرجعٌ تؤول إليه آياتُها موضُوعًا ومنهاجَ إبانة، ذلك المرجعُ المحوريّ هُوَ معنًى مركزي يقُومُ في



كلِّ مكوّنٍ منْ مكوّنـات الـسّورة، فهـو بالنّسبة لها الـرُّوح الـسّاري في كـلّ عنصرٍ منْ عناصرها .

وهذا الذي أشرتُ إلى أنّه من منطقِ الفطرةِ البيانية والذي يؤكـده النّظرُ العلميّ في بيان القـرآن المعجـز لـيس أمـرًا مُستحدَثًا في أزمانِنـا، بـل هـو ممَّا انتهى إليه نظر الأئمـة مـن العلـماء ببيـان القـرآن الْكـرِيمِ ، ولـذا تجاوزوا في تدبّرهم مرحلةَ ربط الآيـة بـما قبلهـا عـلى سـبيل التَّسلسل، فـلا يكـاد النَّظـر يعدُو تلاحـم الآيـات أوائلهـا بـأواخر التـي قبلهـا – تجـاوزوا ذلـك إلى أفـقٍ أسمى وأجدى: أنّ هنالك روحًا يقُوم في كلِّ آيـة بـل في كـلِّ جملـة مـن جُمـل الْبيـانِ القـرآنّيّ فِي الـسُّورة بـل إنــّهم عـلى أنَّ للقـرآن الكـريمِ كلِّـه مقـصُودًا أعظم، يقُوم في كل سُورةٍ بل في كلّ معقد بـل في كـلّ آيـةٍ مـنْ آيـاتِ القـرآن الكريـمِ، هذه الروح قد تظهر لبعضٍ مـن أهـل العلـمِ بكتـابِ الله ﷻ ، وقـد تلطفُ عـلى بعـضٍ ممـن ينظـر في هـذا البيـانِ الْمعجـز، فيتـوهم أنْ لـيس في السورة ما يجمعُ في أقطارِه وأفقه وفضائه بيْن آياتهـا، وهـذا منه غـيرُ دقيـقٍ ؛ لأنّه يجعلُ من إدراكه هو إيجابًـا أو سـلبًا عيـارًا لوجـود الـرُّوح، وهـذا أشـبه بِمـن لا يـؤمن إلا بـما يـرَى هـو، فهـو أقـرب إلى المـنهج المـادّيّ في الإيـمانِ بالأشياء، ومنطق العقل المعافى من داء الغفلـةِ يعـرِضُ عـن ذلـك إن لم ينفـر منه نفورًا.

ومن أهل النظر من يستدلُ بتنوعُ ما ينتجه أهل النَّظـر المتدبّر مـن بيـان هذا المقصُود على أنّ ما يقال من أنّ لكلّ سُورةٍ مقصُودًا أعظم هو لها الرُّوح



السُّوريّ فيها جميعًا إنما هو أمرٌ غير موضُعيّ أو هو أمرٌ مُتوهم ؛ فلو كان لكل سُورة مقصودًا أعظمَ ما اختلفُوا في بيانِه، فاختلافهم دالٌ على أنّ ما يتكلمون فيه ليس له وجودٌ مُتعيّنٌ في السُّورة. الحقُّ أنّ هذا النظرُ فيه نظرٌ.

التَّنوُّع في استبصارِ المقصُودِ الأعظمِ مردّه إلى اختلاف مستويات المُستبصِر في تدبّره واستبصارِه، فمنهم من يقصُرُ بِه السّعيُ، فيرى المقصدَ المرحليَّ مقصدًا محوريّا، والمقاصدُ المرحليّةُ تتعدّدُ فِي السُّورة بتعدّد موضُوعاتها ومعَاقِدِها. فالشَّأنُ فيما هو كليّ محوريّ الّلطفُ، فلا يكاد يُبصرُه إلا ذو فراسة بيانيّة يرَى بها ما لا يراه كثيرٌ من الأقران.

إذا ما كنت مستهلاً القولَ ببيان المقصُودِ الأعظمِ لسورة النحل، فهذا لا يعنِي أنّ بملك المرءِ أن يتبصر معالمه فضلاً عن ملامحه وقسماته علَى يسرٍ من أمره، وبنظرةٍ عَجْلَى أو مصاحبة جانبية للسُورة ،بل ذلك لا يكون إلا إذا انتهج المرء في تدبره منهاج الحال المرتحل، يقلب البصر والبصيرة في آياتِ السورة جميعها، حتى يتبيّن له معالم هذا المقصُود [1].

ومن خلال التأمّل التّدبّر المثابِرِ اتضح أنّ السورة مقصُودها **"بيان منهاج الدعوة إلى توحيد الله ﷻ وإحاطة علمه وكمالِ قدرتِه "**

---

(١) بينت في كتابي : (العزف على أنوار الذكر : معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآني في سياقِ السورة) المنهج الأمثل ، والخطوات التي يتخذها المتدبرُ ليقف على معالم مقصُود السورة، وفي هذا غنية عن أن أعيد القول المنهجيّ هنا والكتاب منشور في طلاب العلم نشرة محدودة، وسأسعى بحول الله تعالى إلى أن أبسط نشره من بعد تحريره وتنقيحه واستكماله.





وقريبٌ منْ هذا قال بِه من قبلُ بعضُ أهل العلمِ، ولكنّي لمْ أشأ أن أنطلقَ من مقالهم، بل نظرت، فانتهيتُ إلى ما قلتُ من قبلُ: إنها سورةُ بيان منهاج الدَّعوة في أمرٍ من أمورِها، وهو أعظمُها وأسّها: توحيدُ الله ﷻ، فهي ليستْ سورةً معقودةً لبيانِ وحدانيّة الله ﷻ، بل لبيانِ المنهجِ الأمثلِ في الدَّعوة إلى الله ﷻ في هذا الأمرِ.

فالاستدلالُ على توحيد الله ﷻ وإحاطةِ علمِه وكمالِ قُدرتِه هو مجالُ بيانِ المنهاجِ، وهو منهاجٌ يُتّخذُ في غيرِ هذا المجالِ أيضًا إلاَّ أنَّ الاستدلالَ على ذلك هو رأسُ الاستدلالِ على أيِّ شيءٍ آخر. فمَن أَحسَنَ الاستدلالَ فِي الدَعوة إِلَيه، فهو مقتدرٌ على الإحسان استدلالاً ودعوةً في ما دون ذلك الأمرِ الأجلِّ.

وتُمثِّلُ صفةُ العلمِ المحيطِ والقدرةِ الكاملة أساسًا لكثيرٍ من صفاتِ الله ﷻ، فلا ينعتُ بكمالِهِ إلاَّ إذا كان محيطًا عِلْمُهُ بالعالمين، وإلا منْ كان كاملَ القدرة على كل شيْءٍ.

والآياتُ والجُملُ والكلمُ الدّالّة دالَّة صريحةً على هذه الثلاث: " الوحدانيّة، وإحاطة العلم، وكمال القدرة " تقومُ في السُّورة من أولِها إلى آخرها قيامًا لا يكادُ يخفَى على من ألقى السَّمع والبصرَ وهو شهيدٌ، فالتَّسبيحُ والتَّنزيه دالٌ على ذلك، فكلُّ كلمةٍ في آيتي الاستهلال دالّة على ذلك على ما سأبيّنه من بعدُ.وكذلك حدِيثه عن الخلق، والإنزال، والتسخير.

كلّ هذا يؤكّد محاور المقصود الأعظم للسورة.

ولو أنّي ذهبت استعرضُ الكلم والجمل والآيات التي تهدي منطوقا أو مفهومًا لاستعرضت جمهرة السورة، فحسنٌ أن أنصرفَ إلى النظر في خصائصِ نظم الآيتين الأوليين، ودلالتِه على هذا المقصودِ الأعظم بما يحقِق فيها خاصيَّة براعة الاستهلال التي هي خصيصةٌ لكلّ سورةٍ من سور القرآن، ولاسيّما الطوالُ والمئين وجمهرة سور المفَصّل.

تدبر خصائص بيان المفتتح، ودلالتها على المقصُود الأعظم

استفتُحتِ السورةُ بقوله: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ شأنُ كل سور القرآن خلا سورة التوبة، وهو استهلالٌ دالٌ على أنّ المعنى القرآني في كلّ سُورة مؤسسٌ على تقرير وحدانية الله ﷻ، وكمال صفاتِه، فمآل معنى﴿بِسْمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم﴾ هو التوحيد، فالجار والمجرور الذي استفتُحت بِه ﴿بسم الله﴾ متعلقٌ بمحذوف مؤخَّر، دلّ حذفُه على عمومه،ودلّ تقديرُه مؤخرًا على اختصاصِه، فكأنَّه قيل: لا نفعل كذا إلا بسمِ الله، وهذا يعنِي أنّه لو كانَ هنالك إلهٌ معه أو دونَه لكان جديرًا أن يشاركَه في أن يُفعل مُستَفتَحا باسمِه، ولكنَّه ليس ثَم، فدلّ على أنَّه ليس هنالك سواه ﷻ من إله، وهذا هو معنى قولنا:" لا إله إلا الله" كلمة التوحيد مفتاح الجنة.

وتجد فاتحة السورة من بعد البسملة تستهل بهذا الخبر الدّال على وحدانية الله ﷻ، وأنه ليس معه من شريك يمنعه من أن يأتي أمره، وأنه هو العليم القدير، فقال: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ استهلالٌ يدهِشُ السّامع، يتجاوز توقّعه،



وانتظاره، فَثَمَّ هنالك مفارقةٌ بَين الخبر ﴿أتى﴾ والنهي ﴿ لا تَسْتعجلوه ﴾ ، فإنما يُستعجل ما لم يأت، فإذا ما أتى، فكيف يكونُ استعجاله.

هذه المفارقة هي التي تدهشُ القارئَ والسامع، فيتلبثُ، فإذا بِه يراجعُ بصيرتَه لتدرك إلى ما يعودُ هذا الضمير الواقع مفعولا في﴿تستعجلوه﴾: أيعود إلى الله ﷻ أم إلى إتيانِ أمرِه أم إلى ثمرةِ إتيانِ أمره. احتمالات تقوم في قلب المتبصّر، يحاول أن يرقب حركة المعنى ليبصر الوجه الأعلى.

وهو في هذا ينظر في اصطفاء الفعل﴿أتى﴾ دون الفعل "جاء" أو "قُضى" أو "نزل" ونحو ذلك .

في اصطفاء الفعل ﴿أتى﴾ دلالة على يسر وقُوعه وتمكنه، فالإتيان أيسرُ من المجيءِ، وهذا دالٌ على انّه ليس ثَم ما يمنعه، وأنّه ﷻ عليم بإتيانِه زمانا ومكانا، وقديرٌ على إيقاعه حيثُ شاء وكيف شاء، لأنه لا شريك له. فالفعل ﴿أتى﴾ وجعله في صيغة الماضِي دالٌ على ما ذكرت، وعلى أنّ ما قضى الله ﷻ أن يكون من قبل خلقِ السموات والأرضِ بخمسين ألف سنة إنما هو آتٍ لا محالة، فهو بتقديره كأنّه كان فما أتى تقديرًا هو لا محالة آتٍ قضاءً، فليس ثَمَّ ما يمنعُ من مطابقة الوجود قضاءً للوجود قدرًا، فالذي يُقرّرهما هو الله ﷻ لا شريك له. كذلك يهديك اصطفاءُ الكلمةِ الأولى من السُّورة بعد البسملة إلى المقصُود الأعظمِ للسورة، وهو يعلمنا كيفية الاستدلال على المراد.

ومن يستحضر المقصُودَ الأعظم للسورة يرفعُ تأويل الفعل﴿أتى﴾ على الحقيقة، ويرى أنّه الأعلى من تأويله بمعنى دنا وقربَ ليتلاءم مع النّهي في ﴿لا تستعجلوه﴾ فيكون المَعنَى عنده: دنا أمر الله ﷻ وقرب فلا تستعجلوه.

القول بأنه أتى لأنه قُضِيَ، وما قَضيَ اللهُ لا مردّ له، فهو قد وقع لا محالة، هو الأليق بمقام الاستدلال على الوحدانية، وفي هذا تعليمٌ لمنهاج الاستدلال: الاعتداد بما لا بدَّ أن يقع على أنّه واقِعٌ، وهذا مؤكدٌ أنَّ المخبرَ بالوقُوع لا مردّ لما يُخبرُ بِه.

وتقييد الأمر بما يروى من سبب النزول فيه تضيقٌ لفضاء المعنى واتساعِه، فالأمر هنا كل الأمر، فما من أمرٍ منْ أموره التي قضاها قبل أن يخلقَ السموات والأرض بخمسين ألف سنة إلا وهو واقعٌ بل هو قد وقع. وأسباب النزول ليست وظيفتُها تضييقُ فضاء مدلول البيان النازل، فالقاعدة الأغلبية أنّ الاعتداد بعمومِ اللفظ لا بخصُوص السبب إلا إذا كان في البيان قرينةٌ غير سبب النزول تدل على الخصُوص، وتحجزُ عنِ الْعمومِ.

واختصاصُ المضاف باسم الجلالة دون اسم الربوبية كما في قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾ ﴾ هود: ٧٦ وقوله جل جلاله في آخر سورة الحجر: ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ الحجر: ٩٨ - ٩٩ فيه خصُوصية للسورة، فهذه السُّورة قد كثر البيانُ بالاسم الأعظم﴿الله﴾:جاء فيها خمسًا وثمانين مرّة، بينما جاء اسمه



﴿رب﴾ تسع عشرة مرة فقط، وجاءَ اسمه ﴿الرّحمن﴾ في آية البسملة فقط، واسمه ﴿الرحيم﴾ سبع مرات فقط. وهذا مردّه إلى أنَّ السُّورة معنية بأمر التوحيد، واسم الجلالة (الله) أليق بهذا المعنى، فمناط منازعة المشركين ليس في توحيد الرُّبوبية، بل في توحيد الألوهية، فمشركو مكة يقولون بتوحيد الرُّبوبية، وينازعون في توحيد الألوهية، فكان حريًّا أن يكون هو مناط الدعوة، وأن يكون الاصطفاءُ للبيان بالاسم الأليقُ بهذا التوحيد.

وهذا يتجلَّى لك حين النظر فيما هو من قبيل المشتبه اللفظي في السورة. تأمل قوله ﷻ فيها:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ النحل: ٧٩ وقوله ﷻ في سورة(الملك): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ الملك: ١٩.

اصطفي في سورة (النّحل) اسم الجلالة، واصطفى فعل التسخير، وذيّل الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وكلُّ هذا هو الأليق بمقصُود السورة، فالتَّسخيرُ لا يكون إلاّ من واحدٍ لا ينازَعُ فيما يريدُ، وإلاّ من عليمٍ بما يصلح لكلّ شيءْ، وقدير على فعل ما يريد متى يريد، وكيف ما يريد، وكلّ ذلك لا يستفيدُ منه إلا من كان ذا إيمانٍ بوحدانية الله ﷻ، وعلمه، وقدرتِه.

والنهي عنْ الاستعجال فيه دلالة على أنّ من الحُمق أن يُستعجلَ الشيءُ قبل أوانِه، وهذا فيه من تأديب الدَّاعية ما فيه، فمن أعظم ما يُضير الدَّاعية، ويبتليه بداء الفتور أن يستعجل رؤية الثمرة واقتطافها، يدعُو، فلا يرَى في



مَن يدعوهم أثرًا لما يقول، فيكادُ يخمد أُوارُ عزيمته، ولو علِم أنَّ لكلٍّ أجلَه الذي فيه يكون لما استعجل، فهذه الجملة:﴿لا تَسْتعجِلُوه﴾ دستورٌ عظيمٌ لكلِّ داعية، ومرتكز مهمٌّ لمنهاج الدعوة، ولو أنّ كلَّ داعية أيقن أنّ الثمرة الأعظم بالنسبة له يتحقّق له كثيرٌ منها بمجرَّ د أن يعزمَ على الدعوة إلى الله ﷻ إنها ثمرة الثوابِ الرّباني الذي يرَى أثره في نفسِه وفي أهله وجميع أمرِه، وأوُّل ما يراه من تلك الثمارِ انشراحُ صدره للخير، ومحبتُه للناسِ، ولذا يدعُوهم، ليشاركوه ما هو فيه من الخير، كلّ ذلك بعضٌ من الثَّمرة الربَّانية للداعية، فمن اعتدّ بهذه الثَمرةِ لم يكن له أن يستعجلَ أمرًا، فالعجلُة مجيءُ الشّيءُ في غيْر أَوانِه، وما كان كذلك جاءَ خِداجًا. يقُول الله ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ القمر: ٤٩ وتختم الآية الأولى من سورة (النَّحل) بالتنزيه المطلقِ لله ﷻ: ورأسُ ما ينزّه عنه هو أن يكونَ له شريك: ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هذا التذييلُ هو مِن السُّنن البيانيّة للقرآن الكريم، فغيرُ قليلٍ من آياتِه قد ذُيّل بها، وقد يأتي على نمط نظميّ آخر:

في السُّورة نفسِها الآيةُ الثالثةُ جاء قوله ﷻ ﴿ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ والسُّنة البيانيَّة للقرآن أنه يجمعُ بين قوله: ﴿سبحان﴾ وقوله: ﴿تعالى﴾ وقد يُفردُ كلاّ بالذّكرِ، كما رأيتَ في الآية السَّابِقة (الثالثة) وكما تراه في قَولِهﷻ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ التوبة: ٣١ فجمع في السُّورة



بـين نـوعين مـن التنــزيه: التَّنــزيه عـن أن يكـون لـه شريـك لأنـه الواحـد، والتّنـزيه عن العجزِ، فهو العليم بكلّ شيءٍ ، والقادرُ على كلِّ شيءٍ.

ويَأتى **المعقدُ الأوَل** من السورة **والمعقد الثالث** منها للتدليل والامتنـان بالنعم حتى أنَّ القارئَ العَجِلَ يكادُ يتوهَّم أنَّ المعقد الثالث تكـرارٌ للمعقـد الأول، ولكـنَّ البـصرَ الحديـدَ والبـصيرة الـسَّوية يـستجليان أنَّ لكـلِّ معقـدٌ خصُوصيته التي بها يتميّز من سابقِه، وإن شاركه في ظاهر الأمـر، فهـذا مـن قبيـل تـصريف القـولِ في القـرآن، وهـو وجـهٌ مـن وجـوه إعجـازِه البيـانيّ، والتصريف البيانيّ في القرآن أوسعُ وألطفُ ممَّا اعتـاد طـلاب العلـم تـسميته المتشابه اللفظي أو النظميّ.

أما **المعقد الثاني** فهو يتناول الحديث عن اعتراضات المعاندين وشبهاتهم والردّ عليها وتفويضها ،ولذلك فإنَّ هذا المعقد وقع موقـع الاعـتراض بـين المعقد الأول، والمعقد الثالث، وهو إيقاعٌ يتلاءمُ مع طبيعةِ مـا يتحـدث عنـه هذا المعقد الثاني أما الخاتمة فإنها تقوم ببلـورة وفذلكـة للـسورة وكيـف أنهـا أحوت على الدعوة إلى مكارم الأخلاق مع الحق والخلق.



المعقد الأول:

(التدليل بالنعم على الوحدانية والقدرة)

يتكون هذا المعقد من الآيات التي تبدأ بقول الله ﷻ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ وينتهي بقوله: ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾(صدر الآية(:٢٢)

آيات هذا المعقد تقوم بتعداد النعم التي أنعم الله ﷻ بها على الإنسان تعداداً يعرض في تجاويفه التدليل على وحدانية الله وقدرته وعلمه واختياره وكماله، وسنلحظ أن صوت الإقناع والتدليل قد امتزج مع الامتنان بقدر محسوب إلا أنَّ صوت التدليل أقوى وأعلى، ولذلك نجده يصرح بهذه الامتنان تصريحاً واضحاً بياناً لمن قد تغفل عقولهم وقلوبهم.

بدأ يحدثك ﷻ عن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان والأنعام، وإنزال الماء من السماء، وما ينبت به، وتسخير الليل والنهار والفلك وما في الأرض من نبات مختلف ألوانه ومن تسخير البحر، وما فيه من نعم، والجبال وما فيها، وهنا يطرح السؤال:

﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ فهذا قاطع فيما قلت لك من أنَّ هذه الآياتِ تضامَّت وتناسقت لتقومَ بالتَّدليلِ بالنِّعمِ علَى وحدانيَّة الله ﷻ وكمال اختياره وعلمه وقدرته، والتَّدليل على أنَّ ما يُدعَى من دونه من آلهة باطلة لا تملكُ مِن أمرِها شيئًا، ومِن هُنا يختمُ هذا المعقدَ بهذه الحقيقةِ القاهرةِ: ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ (ي٢٢)





ولو أنك نظرت في علاقات الآيات المشكلة هذا المعقد نظرة كلية لرأيت أمرًا طريفا، وإن كان لطيفًا تفتقر إلى مزيد من التبصر لتدركه. **بيان ذلك:**

الآية: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (ي:٣) بدأت بدليل غيبي استلزام إردافه بدليل شهوديّ أبرزهُ قوله ﷻ ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ وكان كلُّ ذلك على وجه الإجمال المستلزم تفصيلاً لمن لا يكتفي فيما سبق فجاءت الآيات بعد ذلك مفصلة فانقسمت أولاً قسمين:

الأول: ما شارك الإنسان في خلقه من نطفة وجعل الإنسان أشرف منه ومهيمناً عليه وهو عالم الأنعام والحيوانات ودلك ما تناولته الآيات: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

الآخر: ما لم يشارك الإنسان في خلقه من نطفه ولكنه شارك عالم الحيوان المشارك لعالم الإنسان. كما سبق تبيانه: شارك عالم الحيوان في أن كلا خلق ليكون نعمة على الإنسان وهداية له في الوقت ذاته وقد تناول ذلك الآيات.(١٠-١٦): ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾

وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴿١٦﴾﴾ وهذا القسم الثاني (غير الإنساني والحيواني) نَسق الحديثَ عنه تنسيقاً بديعاً، فقسَّمه علي عوالم ثلاثة:

العالم الأول: العالم المكشوف المحيط به الهواء وقد رتَّب جزئيات هذا العالم ترتيباً بديعاً وجعله أيضاً على أنواع ثلاثة:

(أ) ما كان قريباً إلى النفس شديد الملابسة لها مما يحتاج في إدراكه إلى تفكر وذلك ما تحدثت عنه الآية:

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ فما كون قريبًا شديد الملابسة يحتاج المرْءُ إلى مجاهدة إلى الالتفاتِ إلى ما فيه من عبرة، فإنّ الإلف مشْغَلَةٌ .

(ب) ما كان أبعد من سابقه من النفس وأقل ملابسة لها فكان احتياجه في إدراك دلالته إلي مستوى أقل من أعمال العقل وهو ما تحدثت عنه الآية:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ (ي١٢).

(ج) ما كانت دلالته أوضح وأبين فلم يحتج إلا إلي ضرب من التذكر لما هُو مركوزٌ في الفطرة الأولى وهو ما ذكرته الآية (١٣). ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .

العالم الثاني العالم المغمور الهابط (البحار) المقابل للعالم الذي قبله من جهة محددة وذلك ما تحدثت عنه الآية (١٤):﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ



مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾.

العالم الثالث: العالم الشاهق (الجبال) المقابل للعالم المغمور الهابط الذي قبله من جهة محددة وذلك ما تحدثت عنه الآية (١٥) ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ وكانت الآية رقم (١٦) كمالاً لعطاء جميع الآيات السابقة: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ .

وبملكك أن تبصرَ وجه افتراع وانبثاق الغصون والفروع والأوراق وبهذا (**لم تبق بذكر الدلائل علي الوحدانية علي الوجه الأكمل والترتيب الأحسن والنظم الأبلغ شبهة في أن الخالق هو الله، لما ثبت من وحدانيته وتمام علمه وقدرته وكمال حكمته لجعله تلك الدلائل نعما عامة ومننا تامة مع اتضاح العجز في كل ما يدعون فيه الألوهية من دونه، واتضاح أنه سبحانه في جميع صنعه مختار للمفاوته في الوجود والكيفيات بين ما لا مقتضى للتفاوت فيه غير الاختيار فثبت بذلك أنه قادر على الإتيانِ بما يُريدُ وذلك هو الّذي بدأَ به السُّورةَ ﴿أتى أمر الله﴾.** [(١)]

هذا النسق في الأدلة يتعلم منه الدَّاعية إلى وحدانية الله ﷻ منهاجًا يعينه على إيصال معانيه في قلوبِ سامعيه في أحسنِ صُورة من اللفظِ، فيمكن هذه الأدلة في قلبِ السامع ،ويوطنها، فتتغازر، فتملأُ هذا القلب، فلا يبقى

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسّور ،برهان الدين البقاعي ، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، ط: دار الكتب العلمية - بيروت – ١٤١٥، ج ٤/٢٥٥





لغير دلالاتها مكان، فتخضع حركته في الحياة لمتطلبات هذه المعاني ،وتلك هي الغاية التي يرمي إليها كلّ داعية إلى الله ﷻ

وعلينا أن نتذكر كيف أنه ختم ما يُسميه البلاغيّون (براعة استهلال) بقوله ﷻ ﴿لا إله إلا أنا﴾ وختم آيات المعقد الأول بقوله ﷻ ﴿ إلهكم إله واحد﴾ فهذا تصريح بالمحور الذي تدور حوله آيات السورة كلها.

وَتَلْحَظُ أنَّ هذه الجملةَ المحوريّة (أم القرى) ﴿ إلهكم إله واحد﴾ جاءت مجردةً من أدوات التوكيد، وأساليبه المعهودة، من أنّ مضمونها قد بلغ من الوضوحِ والتَّمكُّنِ والثّباتِ بما ساقتْهُ آياتُ المعقدِ الأولِ من البُرهان القاهر، والسلطان الظاهر على أنها حقيقة الحقائق الكبرى.

وهذا نهجٌ منْ أنهاج تقرير المعانِي في القلوب لا تكاد تجدُ نظيرَه في غيرِ البيانِ العليّ: بيان الوحي الأقدسِ، وفي هذا من الهدي المنهجيّ للداعية، إن تبصّره بلغ المنزل، وتَسَنّمَ شرف الغاية،وتَنَسّمَ أرَجَ النّجح والمفاز. وتلك طَلِبةُ كلّ داعية إلى ﷻ

وما تحمله الجملة القرآنية: ﴿لا إله إلا أنا﴾ ،و﴿ إلهكم إله واحد﴾ انتشر في نسيج السورة مصرفةً صورة التعبير عنه وفق ما يقتضيه السياقُ الذي تبرزُ فيه.

المعقد الثاني للسورة:

(بيان موقف المعاندين والرد علي شبهاتهم)

تمثل الآيات من (٢٢-٦٤) المعقد الثاني من معاقد السورة الثلاثة، وهذا المعقد ذو طابعٍ خاصٍّ من بين آياتِ السُّورة كلِّها.

إنّه معقدٌ قائمةٌ آياتُه للكشفِ عن طبيعة المعاندين وتعديدِ شبهاتهم وتقويضِها واحدةً واحدةً كيما يجهزَ علي كلّ عتادٍ وعدّة يتترسُ بها العقلُ في جدله الأعمَى.

على أنَّه ربما ظنَّ أنَّ هذا الْمعقدَ مُقْحَمٌ بيْن المعْقِدِ الأوّلِ والثّالث، إلاَّ أنَّ البَصيرَ يرى جمال إيقاع الحديث عن هذه المعاني في هذا الموقع بين المعْقِديْنِ الأوّل والثالث، وحسنُ تَبصّر الدَّاعيةِ في هذا المنهج البديع في النسق يهديه إلى أن يتخذ منهاجًا شبيهًا في محاوراتِه ومجادلاته.

وهذا المنهجُ في نسق المعاقد يُظْهر لك الصُّورة الُمثلى لإتيانِ المعنى من الجْهةِ الّتي هِي أصحّ لتأديته ،كما يرى عبد القاهر في الدلائل[1] وَقَعَ البيانُ عن اعترضاتِ المشركين على وحدَانيّةِ الله ﷻ موقعًا اعتِراضِيًّا بيْن معقدين للاستدلال بنعم الله ﷻ القائمة في نفوسِ المشركين، والقائمين فيها على تقرير ما يعترِضُون عليْه ،وفي هذا من بديعِ المشاكلة بيْن الموقِع والمضمونِ

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني ،قراءة وتعليق شاكر ، ط:المدني ،نشر الخانجي ص: ٤٣

والوظيفة ما فِيه ، وهو أيضًا من معالمِ إعجازِ البلاغة القرآنيّة من جهة، وفيه من تعليم الدّعاة إلى وحدانية الله ﷻ ما فيه، فانظر كيف يحيط اعتراضات وشبهات المشركين بدلائل وحدانيته، وكيف يمهّدُ لنقضها وتقويضها بقرير الأدلة القائمة فيهم والقائمين فيها، ثُمّ إذا ما عمد إلى شبهاتهم وقوّضها وفرغ من ذلك عمد إلى مزيدٍ من تقرير الأدلة على وحدانيته ﷻ ، إنَّه المنهج الأمثَلُ الَّذي يصلُ به الدَّاعية إلى ما قام له، ويسعَى إلى القِيامِ بِه علَى الوجه الأمثل، وتلك ربَّانيَّة المنهجُ القرآنيّ.

تفصيل البيان:

أول ما ترى أنَّ آياتِ المعقدَ الأول (ي:٣-٢٢) ختمت بالجملة الأولى من الآية (٢٢) وهي:﴿ إلهكم إله واحد﴾ لتبدأ هذه المرحلة بقوله: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ مصدرة بـ"الفاء" الدَّالة على التسبب والتفرع والانبثاق لتشير إلى أنَّه إذا كانت آياتُ المُعقدِ الأوّل بما فيها من دلائل قد أسلمتك فِي رفقٍ وتمكّنٍ إلي حقيقة الحقائق الكبرى:﴿إلهكم إله واحد﴾ وجعلتك في حالة لست بحاجة إلى تأكيدٍ لمضمون هذه الجملة التي هي محور المقصود الأعظم للسورة، وبرغمٍ منْ ذلك، فإنَّ الذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرةٌ لمضمون هذه الجملة، وبحاجة إلى إخلاء ما في عقولهم من شبهاتٍ وتنظيفها، وبحاجة إلى تأكيد مضمون هذه الجملة في عقولهم. وهذا يبيّن للداعية عظيمَ ما هُو آخذٌ بقلوبِ المنكرين، فليكنْ الدّاعِية إلى الله ﷻ حكيمًا حليمًا رفيقًا حَتَّى يبلغَ المنزل إمَّا بإعانتهم على



الهُدَى ،وإمَّا بتقويض ما يَتَتَرَّسُونَ بِه، ويَحْتَجُّون، فإذا هم عُراةٌ أمامَ أَنفسِهم، إذا خلَوا إليها علِموا عظيمَ حُمقهم بها أنكرُوا وعاندُوا. وإقامة المعانِدِ أمامَ نفسِه مستخذيًا أمرٌ عظيمٌ أثرُه عليْه.

بدأ ﷻ ببيانِ حالِ المعارضين المعرضين عن الوحدانيّة، وهي أنَّ قلوبهم منكرةٌ، وأنهم مُستكبرون، فإعراضهم واعتراضهم ليس مِن قِبل شبهة في الدلائل والأدلة بل في قلوبهم، وفي هذا هدايةٌ للدَّاعية أن يُحسن البصرَ بأسباب المعاندة حين يقُوم مقام الجدالِ بالتِي هي أحسن، فممَّا يُحقق لهذه المُجادلة الحُسْنى أن يكونَ الدّاعِيَةُ على بَصرٍ نافذٍ بأسبابِ الْمعانَدةِ والاعتراضِ ليسْعى إلى إزالةِ هذهِ الأسباب، فذلك أقصرُ طريقٍ إلى الغاية، أَوْ على الأقلِّ إلى تهوينها وتضعيفها أو كشفها وتَعريتها.

أبان القُرآن في مفتتح عرضِ شبه واعتِراضاتِ المنكرين وَحدانيةِ الله ﷻ عنْ أسبابِ ذلك: السببُ الرئيسُ لأنْ تكونَ قُلوبُهم مِنكرةً أنَّهمْ مُسْتكبرون. إنه الدّاءُ الوبيل: الاسْتكبار.في هذا كشفٌ للداعية، وإعلامٌ له أنّ الأدلةَ على وحدانية الله ﷻ ليست هي سببُ نكران قلوبهم، إنها أدلةٌ وبراهينُ ساطعة راسِخةٌ سطوع الشمس فِي رابعة النّهار في ديارهم، ورسُوخ الجبال منْ حولِهم. ولكنّه الاستكبار.

وهذا حينَ يقُوم في قلبِ الدّاعِية على وحدانية الله ﷻ لا يعتريه حسبانُ تقصيره، فيتخاذل ،وفيه عرفانٌ له أن يجتهد فِي اتخاذ زاده وعدّته وعتاده لبلوغ المنزل، فالسفر بعيدٌ شاقٌ، والغايةُ شاطنة، ونبيلة، وأشرفُ الغايات

وأنبلها عطاءً أحمَزُها سبيلاً، وحينذاك يدركُ الدَّاعيـة أَنّ الله ﷻ مـا أقامَـه في هذا السَّبيل إلا تكريمًا لَه. انْتَدَبَهُ لعصِيّ المطالـبِ، وذلـك تكـريمٌ لـيس مـن وَرَائِـهِ تكـريمٌ فِي الـدّنيا، وفي هـذا مـن الحْفْـزِ، والاسـتفزازِ لِبـذل الجُهـد واستعذابِه والتَّمتّع بـما يتـوالى فيـه مـن المعانـاة. وبمثـل ذلـك يبلـغُ الأبطـال غاياتهم. ذلك بعضٌ من ربانية المنهج في هذه السورة الجليلة.

ولَمَّا كان السببُ في إعراضِهم إنما هو استكبارهم جاء التهديد بأن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون (الآية:٢٣): ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ٢٣﴾.

ليس أشد تهديدًا منْ هذين: ﴿أَنَّ اللهَّ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾

إنّه لتهديدٌ تنفطرُ لَه قلوبُ العارفين.

وإبـراز العلـم الـشامل عنـصرٌ مـن عنـاصر المقـصود الأعظـم للـسورة، وجميلٌ أن يكون المبرز هنا إنما هو عنصر العلم الشامل، وليس القدرة ؛ لأنَّـه العنصرُ المتلائمُ مع الإحاطة بالشبهات وتقويضها الّتي بدأ يُعـددها واحـدةً واحدةً ويقوضها.

(١) الشبهة الأولى: الاعتراض على القرآن ووصفه بأنه أساطير الأولـين (ي ٢٤- ٣٤)

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٦ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ

أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٞۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٖ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾ .

الشبهة الثانية: التعلق بالقضاء والقدر في إشراكهم بالله(ي ٣٥- ٣٧)

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٖ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

الشبهة الثالثة: (إنكار البعث يوم القيامة)(ي ٣٨- ٤٢).

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ .

الشبهة الرابعة: (إنكار بشرية الرسل)(٤٣- ٤٤)

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ .

ولضيق المقام أذكر فذلكة القول في هذا المعقد الثاني (الاعتراضي):



أُلقِي نظرةً إجماليّةً نبصرُ فيها التّناسب الكليّ بين مجموع الآيات وهي اثنتان وأربعون آية فنجد أنه بعد أن دلَّل في المعقد الأول (ي:٣-٢٢) على وحدانيته وقدرته، وأنكر عليهم تسويتهم الخالق بغيره، وأبان عن تفضله عليهم على الرَّغم من استحقاقهم العقاب ؛ لأنه غفورٌ رحيمٌ مختارٌ يفعلُ ما يشاءُ، وَأَثبَتَ أَنَّ آلهتهم لا تصلُح للألوهية، وأنه هو الله الواحدُ، بعد هذا بدأ في بيان حقيقتهم وسرِّ موقفهم المعاند بأنهم مستكبرون عن قبول الحق المتَّضح الزاهر بالدلائل القوية وأنهم يتشبثون بشبهات واهية وبدأ في عرضها وتقويضها.

وأوّل ما عرضه من شبهاتهم اعتراضهم الماكر على القرآن، ووصفه بأنَّه أساطير الأولين، ولعلَّه بدأ به لأنهم خاصة ما كان لهم أن يفعلوا، وهم الذين تحدُّوا بالإتيان بمثل سورة منه، فعجزوا، وقوض موقفهم قارناً له بموقف أئمتهم ومصيرهم ليعلموا مصيرهم المحتوم، ثم قابله بموقف الذين اتقوا من القرآن الذي هو هدى لهم لا لغيرهم، فكان إعلاءً للذين اتقوا وتسْفيها وتبشيعاً للذين لا يؤمنون بالآخرة.

ويردف ذلك بشبهة أخرى هي تعلقهم بالقضاء والقدر في إشراكهم، وأنه مَرْضِيُّ الله ﷻ إفحاماً للرسل، فردَّ عليهم بتنظير موقفهم هذا بموقف سابقيهم الذين علموا مصيرهم ليكون رداً شهودياً على ضلال ما تشبثوا به وإن حجاجَهم الأنبياء عليهم السلام حجاجٌ باطلٌ وليس من شأن الرُّسل الرَّدُّ عليه والدُّخول فيه.



نلحظُ بأنّه بدأ بشبهةٍ هي أوهنُ الشبه، لأنّ لهم منْ أنفسِهم حجة على هوانها وضلالهم في القولِ بها، فليس أحدٌ أعلم بأن القرآن من عند الله ﷻ من العرب زمن النبوة،، فإذا ما اتخذوا هذا شبهة، فهذا دالٌ دلالة بينة على أن الاستكبار أوقعهم فيما يستحيي عاقلٌ أن يقع فيه،وهذا يكشف أن الاستكبار كالجنون يفقد المرء معه صوابه، فيحسب أن الهوان عزة، وأن المتهاوي راسخ، وفي هذا من تحذير الدعاة من أن يمسهم شيْءٌ من الاستكبار: بطر الحقّ.

وفيه تعليم للدعاةِ أن يكون بدْء حجاجهم مجادليهم بما هو أهون في نفسه، وأنكى في كشف ضلال المعاند، فإنّه إذا ما استهل دفع عنادهم بما يؤكد أنَّ في عقله دغلٌ وفسادٌ ،وأنه أقدم على ما لا يُقدم عليه من في رأسه ذرَّةٌ من عقل، يكون هذا بمثابة الضَّربة القاضية، مما يبادر بجندلته ، وتفتيت قوته وعزمه ،وهذا نهج في المجادلة بالتي هي أحسن جد عظيم يختصر الطريق إلى النصر، ويحققه على تمامه.

كذلك تكون التربية المنهجية للدعاة ،وهي كما رأيت معلم عظيمٌ من معالم البناء التركيبيّ لسورة (النّحل).

وثنّي بشبهة الاستمساك بالقدر، وأن الله ﷻ إذا أراد هدايتهم لهدوا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾ .

وهذه شبهة قديمة ثبت بطلانها، ومن الحُمق والأفن أن يتترس معترضٌ بشبهة قِيلت من قبله وقوضت، ورأى أثر القول بها، وما لحق

بقائلها من النكال، وهذا يبين للدُّعاة أن أهل الباطل يتوارثون شبههم وأباطيلهم دون حياءٍ من ترداد ما هم عالمون ببطلانه، ورغبة منهم في الشغب بالباطل على الحق ،وهذا يكشف للداعية أنَّ أهلَ الْباطلِ يَتناصرون ،ويقِيمون على باطلهم، فحُقَّ لأهل الحَقِّ أن يتناصروا بالحق لنصرة الحق. وها ما يفتقر إليه غير قليل من الدعاة، لا يتناصرون بالعمل الجماعي المنظم، فالعمل الفردي، وإن كان مجيدا متقنا إلا أنه قد يضعف أثره أمام تناصر الباطل، والله ﷻ يدعو في جليل الأعمال إلى أن تؤدّى أداء جماعيا:

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (البقرة:٤٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ (التوبة: ١١٩).

ويأتي بعد هذا بشبهتهم الثالثة: إنكار البعث: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أبان عن اجتهادهم في تقرير هذه الشبهة، أقسموا جهد أيمانهم ،وفي هذا ما يكشف عمّا يعتمل في نفوسهم من القول بالبعث، ،إنّ القول به سيقوضُ كلّ ما هم عليه من أباطيل، فاجتهدوا أن يدجّلوا وأن يجادلوا لعلهم بذلك يبقُون على أباطيلهم من التساقط ،وفي هذا كشف حالهم للدعاة، وبيانٌ لهم أنّ أهل الباطل يجاهدون عند ما يشعرون أنّ في المساسِ بباطل من أباطيلهم قضاءً عليهم، فيتعلم الداعية أن استبسال أهل الباطل إزاء أمرٍ ما أنّ هذا الأمرَ عليه أن يستفرغ جهده في تقويضه، وألاّ يتهاون معهم فيه بل يكرّ بخيله ورجله عليه ،ولا يدع جهة إلا أتاهم منها، ولا يدع ثغرة إلا أنفذ منها



سهامه الماحقة، كذلك يعلم القرآن الدعاة منهجًا يكتشفون به مكامن الخطر على أهل الباطل لينقضوا عليهم منها.

وفي البيان بقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ دلالة على ما هو آخذٌ بعقولهم من داء الاستكبار، فهذا الداء منعهم من الوعي بما نطقت ألسنتهم (أقسموا بالله) مجرد نطقهم بهذه الكلمة الجليلة ﴿الله﴾ كافٍ إن عقلوا أن يمنعهم من هذا القسم، فإذا كان هو الله فكيف لا يبعثهم،والبعث للحساب كمال العدل، فكيف لا يبعث ليحقق كمال العدل وهو الله ﷻ ، أليس كونه هو (الله) باعترافهم دالاًّ على أنّه لابدّ من البعث للجزاء ،

وفي هذا تربية للدعاة أن يتعلموا نقض شبهات المجادلين من منطوق لسانهم، فإنك إذا استخرجت نقض الشبهة من الشبهة نفسها فقد دللت على أن صاحب الشبهة لا يعي ما يقول ،وأنّه في سكرة من أمره، وأنه لو ملك قليلا من الوعي بما يقُول لكف لسانه عن أن ينطق بها، وفي هذا من التسفيه للمجادل بالباطل ما يقوضه، ويجندله

وجاء الرد مفحمًا ﴿بلى﴾ فهي كلمة ردّ وإضراب يكفح ما زُعم من عدم البعث:

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ (التغابن: ٧)

وأضاف بأن هذا وعد وعده الله على نفسه ثابتا لا يزول ولا يحول، فجعله على نفسه حقا لمظلوم ينتصف له من ظالمه. ﴿وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً﴾

وفي الإتيـانِ بهـذه الـشبهة عقـب الـشبهتين الـسابقتين دلالـةٌ عـلى أنَّ اعتقادهم الشُّبهة الثالثة هو الذي دفعهم إلى الأولى والثانية، فكـان هـذا مـن إيراد السّبب والعلّة بعد المسبب والمعلول، وفي ذلك من التوطيد والتثبيت ما لا يخفى على ذي معرفة. وفيه أيضًا تربيةٌ منهجية للدُّعاة أن يكـون مـن منهجهم في مثل هذا أن يعرضُوا الأمر الذي يستنكر وقعه ثم يُردفه بسببه، لأنّه إذا بدأ الدَّاعية بذكر ما تستنكره الفطر، ومنطق العقل السَّوي، كـان المرءُ بحاجة إلى أن يعرفَ السَّبب الّذي به كان ما لا يسترضَى، فيكـون هـذا أعظـمَ وأقـوى تنفيرًا مـن الاقـتراب مـن ذلـك الـسَّبب لأنـه مُوقِعٌ فـيما لا تسترضيه الفطر السَّوية.

ومِن البيِّن أنَّ عدمَ الإيمان بالبعثِ يفتحُ الطريقَ أمامَ من لا يـؤمنُ بـه أن يفعلَ كلَّ ما يقدرُ عليه دون رادعٍ يردعه ولا تجد مستهترًا في الـشَّرِّ إلاّ مـن عدمِ يقينِه بالبعثِ أوْ مِن غفلتِه عنه، وكمْ مِن شرورٍ تُحدّثُ المرءَ نفسُه بها، فيكفُّ عنها مِن مخافةِ البعثِ، ففي الإيمانِ بالبعثِ مزيدُ أمنةٍ للمجتمع، ومتينُ سياجٍ من كثيرٍ من الشُّرور. وسعيُ الدعاة إلى تمكين هـذا الإيمان في قلوب الناس يوفر عليهم كثيرًا من الجهد في محاجزتهم عن الشرور، لأنّ الإيمان بالبعث سيكون كفيلاً بهذه المحاجزة، كذلك يعلمنا القرآن في هـذه السورة وغيرها كيف يحسن الداعية اصطفاء ما يمنحُه مزيدًا من عنايته، وما يجعله المقدَّم في سعيه، وهذا من التربية المنهجية للدعاة في القرآن ما فيه ،وهو أسٌّ من أسس القول في سُورة (النَّحل).



ويختم بالشبهة الرابعة المتعلّقة بإنكار بشرية الرسل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ فردّ عليهم بأنهم يعلمون جيداً أنَّ السَّابقين من الرُّسل كانوا بشراً، وليسألوا أهل الذكر في هذا إن كانوا لا يثقون إلا في مقولاتهم وهم الذين عادوا إليهم في بعض أمرهم.

وكأنّي به يختم شهادتهم بهذه الشبهة أن يشير إلى موقفهم المتناقض لأنَّ إنكار بشرية الرُّسل فيه اعتراف ضمنيٌّ بالإرسال، وأنَّ الإنكارَ منصبٌّ هنا على كونه بشراً مع أنهم في الشُّبهة الثَّانية التي تشبَّثوا فيها بالقدر كانوا بذلك يرمُون إلى عبثية الإرسال عموماً فكان التناقض بين الشبهة الثانية والرابعة جدَّ جليّ هو ضرب من التنسيق بديع.

وبعد أن أوهى شبهاتهم تحدَّث عن القرآن. وجميل أن بدأ الشبهات بالحديث عن موقفهم من القرآن، وختمه أيضاً بالحديث عنه فكان أشبه بردِّ العجز على الصّدر، وهو نهج من أنهاج تقرير المعنى الجليل في النفوس، فليست مهمة الدَّاعية منتهية بإيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ بل لابدّ من تقرير هذا المعنى في ذلك القلب وتمكينه فيه وتوطينه ليتغازر فيملأ هذا القلب، ولا يدع لغيره مكانًا فيه، ولذا كثرت في البيان القرآني مسالك توكيد جليل المعاني في القلوب وتمكينها فيها ،وتمكين تلك المعاني من تلك القلوب. وهذا فيه تربية منهجية للدعاة لا تخفى.

التهديد علي الضلال

وبيان صورٍ مما كانوا عليه منه ،وبيان الطريق المستقيم إلى الله ﷻ (ي: ٤٥- ٦٤):

بعد أن ذكر شبهاتهم وقوضها وهدَّدهم في أثناء ذلك، وختم حديثه بإنزالِ القرآن لعلهم يتفكرون فيما حواه من هداية وبيان ومن جملة بيانه. ما أشارتْ إليه الآياتُ من عذابِ الأمم السَّابقة حين عاندته، فكفرت، فطلب من كفَّار مكَّة وأتباعهم أن يسيرُوا، فينظروا كيف عاقبةُ سابقهم وأئمتهم، فكان ذلك التَّفكير في مصيرهم أدعَى إلى خوفهم، فجاء هنا لينكرَ عليهم أمْنهم وعدمَ خوفهم بعدَ هذا البيان فقال:

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ بعد أن ذكر شبهاتهم وقوضها

وهدَّدهم في أثناء ذلك، وختم حديثه بإنزالِ القرآن لعلهم يتفكرون فيما حواه من هداية وبيان ومن جملة بيانه. ما أشارتْ إليه الآياتُ من عذابِ الأمم السَّابقة حين عاندته، فكفرت، فطلب من كفَّار مكَّة وأتباعهم أن يسيرُوا، فينظرون كيف عاقبةُ سابقهم وأئمتهم، فكان ذلك التَّفكير في مصيرهم أدعَى إلى خوفهم، استهلّ إنكاره عليْهم أمْنهم وعدمَ خوفهم بعدَ هذا البيان لما حلّ بسابقيهم فقال: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ﴾ أي أتفكروا فتابوا أو استمروا على عتوهم فأمنوا، ويعنى ذلك أن (الفاء) في ﴿أفأمن﴾ عاطفة على مقدر هو المقابلُ لمدخول الهمزة. وهذا المقدر هو الذي كان حريًا أن يكون منهم، لكنه ما كان فطواه، وأبرز ما يأمل أن يكون لو كان ما بني عليْه ، وفي هذا من التسفيه لهم أن وقع منهم ما لم يقع سببه، فالأمن لا يكون إلا من إيمان، وما كان منهم إيمان، فكيف أمنوا؟ إنهم إلا في ضلالٍ مبين.

كذلك يوظف إيلاء (الفاء) همزة الإنكارِ، لتصوّر لك عظيم حمقهم، وهذا نهج من أنهاج الدعوة أن يكون الطعن على المستكبرين قويًا ولطيفًا أي ألا يكون مباشرًا، ففي اللطف قوة ونفوذٌ أعظم ممّا في الظاهر الجليّ. ونلاحظ من الآيات أن الله ﷻ قد ذكر في تهديدهم أربع صور:

١) أَن يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ
٢) أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ
٣) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ

٤) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ

الصّور الثلاثة الأولى مفروضة في حال أمنهم من العذاب عند ظنّ عدم القدرة عليه وعليهم ولذلك كانت الفاصلة للثلاثة ﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أيْ في أيِّ حال من الأحوال الثلاثة فسواء علينا غفلتهم وتيقظهم ، ولم يختم الرابعة بذلك لأن المتخوّف يكون مجوزًا الوقوع فلا يظن عدم القدرة علي الإيجاد وبهذا تبرز دقة استخدام الفاصلة في الآيات.وذلك لا يختلف إن قلنا إنّ قولَه﴿تخوف﴾ من مأخوذٌ الخوف وتوقع وقوع العذاب بما يرونه من ظواهره ومقدماته فيتوقعون نزوله، و قلنا إنّ قوله: ﴿تخوّف﴾ هنا على لغة هذيل أي تنقص، أي يأخذهم واحدة بعد واحدة بما يقيم فيه من أسباب الهلكة من فقر ومرض ومذلة وقتلٍ ونحو ذلك.

كما يلاحظ أنّ الصور الثلاث الأولى تعطى نوعاً من إيقاع العذاب على سبيل الاستئصال أما الرابعة فهو على سبيل التنقص والتدريج (علي أيّ من وجهى تفسيرها) ولذا أفردت الرابعة عن بقية الصور.

وقوله: ﴿ فإنّ ربّكمْ لرؤوف رحيمٌ﴾ يحتمل وجهين من التأويل: أَنَّ هذا التهديد بصوره الأربع ختم بقوله: ﴿ فإنّ ربّكمْ لرؤوف رحيمٌ﴾ إشارةً إلى أنّه قد تسبب عن إمهالهم في كفرهم وطغيانهم مع القدرة عليهم العلمُ بأنّ تركه لمعالجتهم ما هو إلا لرأفته ورحمته، لا لعجزه أو جهله بحالهم، أو مانعٌ

منعه من ذلك، فإنّه الواحدُ العزيز الذي لا يُنازع، وهو العليم القدير، وأنّهُ فعل ذلك من رأفته ورحمته، لعلَّ منهم من يؤمن

الوجه الآخر أنّه ينظر إلى ضمير الخطاب في (فإنّ ربكم لرؤوف رحيم﴾ فهو خطابٌ للمسلمين أي أنّه ما عاجلهم ؛ لأن في إمهالهم رأفة بكم ورحمةً، فإنه إذا ما لم يعاجل منكري وحدانيته بالعقوبة، فهو أعظم إمهالاً وصبرًا على ما يقع ممّن آمن به إلها وحدًا، وفي هذا بعثٌ للإحساسِ بمحبة الله ﷻ لعباده الموحدين، وفيه تربية للدُّعاة ألا يعاجلوا بالعقوبة أو بالنكال الحسيّ والمعنوي من ناوءَهم أو سلك سبل الاعتراضِ والمناكدة، فليكن منهم تخلقٌ بصفة الله الرؤوف الرحيم. وهذا من أسس منهاج الدعوة، فالدَّاعية الذي يسرعُ إلى الانتقام من مخالفيه أو المختلفين معه فيبسط فيهم لسانه أو يده إن استطاع إنما هو داعية عقيم عمله، هو إلى التَّنفير أقوى منه إلى تأليف القلوب وترويضها.

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (آل عمران:١٥٩).

والداعية الحكيم يحرصُ على ألاَّ يكثّر الأعداء من حولِه حتّى لا تعيقه كثرتهم عن مسيره، فهو إلى تأليف القلوب مع معانديه أميلُ إلا فيما لا يرضي الله ﷻ، فكلما وجد سبيلاً حسنًا إلى مقاربته فيما لا يلحق بإيمانه وعمله ضررًا لا يطاق كان إليْه أسرع، هذا ما يفتقرُ إليْه كثير من الدعاة،في زماننا ولاسيّما الشبيبة منهم.

ولما كان مقامُ التهديد يقضى إبراز الاقتدار عليه جاءت الآية (رقم ٤٨):

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ لتدل على تمام قدرته علي ذلك وغيره.

وعطفه على مقدر من الآيات السابقة تقديره: ألم يروا إلى عجزهم عما يريدون وقسره لهم على ما لا يريدون فيعلموا، بذلك قدرته وعجزهم فيعلموا أنَّ عفوه عن جرائمهم إحسانٌ منه إليهم ولطف بهم ولم يروا بعيون الأبصار متفكرين بالبصائر إلى ما خلق الله من شيء.وفي هذا التفاتٌ إلى قوله من قبله :﴿فإنّ ربكمْ لرؤوف رحيم﴾

كذلك ترى أنّه منْ بعد أن أوهى شبهاتهم هدَّدهم وأنكر عليهم الأمنَ من عقابهم، وهو القديرُ عليه إلاَّ أنَّه ما عاجلهم به ؛ لأنَّه رءوفٌ رحيمٌ مختارٌ يفعلُ ما يشاءُ متى شاء، ثم كرَّ على موقفهم من وحدانية الله ﷻ فنهاهم عن الشرك وجهر بتفرد الله ﷻ بالألوهية الحقّة في صلب الحديث عن موقفهم وحقيقتهم، وكأنه بهذا يضعُ في قلبِ موقفهم الحقيقةَ المدمرة لكلِّ ما يحاولون، فكان من البديع أن جعل التَّصريح بالوحدانية في هذه المرحلة في قلب الحديث بينا نراه في براعة الاستهلال جعله في ختامتها.

وفي المعقد الأوّلِ جعل التّصريح بوحدانية الله ﷻ في ختامه: في جملة تأخذُ صدر أوّل آية في المعقد الثاني، ويجعل بدأ هذا المعقد الثاني وختمه حديثًا عن الْقُرآنِ، وهو يمثلُ ضربًا من ردِّ العجز علي الصدر وليكون

الحديثُ عن الوحدانية التي هي المقصود الأعظم للسورة بمثابة المركز للدائرة.

وهو بعد أن يتحدث عن الوحدانية يعرض مواقف لهم كلها تتمثل في إشراكهم وتصورهم في أبشع صورة يكون عليها مخلوق مع خالقه حين يعلي نفسه على خالقه ولا يكتفي بإعلاء آلهته الباطلة التي خلقها هو على خالقه ﷻ ، ويجمل بنا أن نتذكر هنا أنه في ختام المعقد الأوّل أنكر عليهم تسوية الخالق بغيره فيكون حديثه في الآية تفصيلا وإنهاء لما في ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

وبهذا يبرز أمام أبصارنا التنسيق والتناسب البديع الذي يؤكد أنَّ السورة ذات خطة محكمة في تركيب وترتيب وبناء عناصرها كلّها . وأنّ إيقاع الآيات المتضمنة عرض وتفصيل اعتراضات المشركين على وحدانية الله ﷻ وعلمه وقدرته ونقض تلك الاعتراضات والشبهات موقعًا الجملة المعترضة فيه ضربٌ من المشاكلة بين المضمون والموقع الذي يقع البيان عنه على لاحب مساق القول، وأنّ هذا من اقتضاء المضمون موقع البيان عنه، فالمضمون يختار شكل بِنْيَتِهِ البيانية وموقع هذه البينة من السياق، وهذا معلمٌ من معالم الإعجاز لم يلتفت إليه كثيرٌ من الناظرين في دلائل الإعجاز، ولعلّي بما أشرت وأوجزت تفصيله لفت الانتباه إلى هذا المعلم الَّذي هو جديرٌ بأن يستقصى القولُ فيه من أهل العلم ببلاغة كتاب الله ﷻ ومن طلابه.

المعقد الثالث: عودة إلى الامتنان والتدليل على الوحدانية في صورة جديدة.

يستهل هذا المعقد بقول الله ﷻ ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

ويختم بقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

سبق أن رأينا في المعقد الأول (ي: ٣- ٢٢) توالي الآيات المعدّدة نعم الله ﷻ تعديداً يدلُّ على وحدانية المنعم ﷻ وقدرته واختياره وكماله تدليلاً ممزوجاً بالامتنان ولما كان المقصود الأعظم من القرآن تقرير أصول أجلها الألهيات، وأجل الإلهات التوحيد. لذلك بعدما انتهى من تقويض شبهات الذين لا يؤمنون بالآخرة وكشف حقيقتهم، شرع مرَّة أخرى من أول قوله: ﴿ وَاللهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ{٦٥}﴾ في التدليل على الوحدانية والقدرة بمنهاج آخر في الإبانة والاستدلال، وفي هذا تربية منهجية للدُّعاة أن يتفنَّنوا في بيان الحقائق، ففي كلّ مرَّة من مرات التَّفنّن في العرض إضافاتٌ تعينُ على تمكين الحقيقة في القلب، فقلوبُ النَّاس متفاوتةٌ في الإقبال والإعراض، وفي قدر التلقّي، فمن الحكمة في الدعوة أن يُحسن الدَّاعية تنويع طرائق عرضه الحقائق والاستدلال عليها، فالغاية هي تمكين الحق بالحق في قلوب العباد على تنوعها وتفاوتها في القبول والتلقي.



وجاء قوله ﴿ وَاللهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ{٦٥}﴾ على قوله ﴿ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ{١٩}﴾

بيان هذا: إن آيات الأولى كانت تعديداً مدللاً على الوحدانية والقدرة المطلقة على كلِّ شيءٍ وفي ضمنه التدليل علي البعث، ولم يصرح بالقدرة على البعث في آيات المعقد الأول إلاَّ في آيةٍ واحدة في ختام آيات المعقد الأول في معرض وصف ما يعبدون من دون الله الواحد القادر المختار فقال ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ{٢١} ﴾

بينما آيات المعقد الثالث (ي ٦٥-٨٩) تركز على التَّدليل على القدرة على البعث الحاملة في طيِّها القدرة علي كل شَيء.ولهذا عبر في آية إنزال الماء بقوله﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ومن السنة البيانية للقرآن أنه إِذَا تحدث عن إنزال الماء من السماء في سياق البعث قال فأحيا أو فأخرج، فذلك هو الملائم للبعث الذي يكون السياقُ له ،وهذا من أثر السياق في اصطفاء الكلمة.

وما يلحظ أنَّ تعديد النّعم في آيات المعقد الأول (ي٣- ٢٢) كان يجمعُ بين التدليل والامتنان إلا أنَّ جانب التَّدليل كان أعلى صوتاً وأقوى ظهوراً بينما في آيات المعقد الثالث (ي: ٦٥-٨٩) كان جانب الامتنان أعلى، وكان إبراز الاستدلال في المعقد الأول أنسق بوظيفة هذا المعقد، لأنّ الامتنان إنما يكون بعد التسليم بالاستدلال، ولهذا جاء الامتنان أبرز وظهر في آيات

المعقد الثالث، وهذا يرسُم لنا منهاجا بيانيا عاليا يمكنُ أن يُربَّى عليه الدَّاعية، ويمكنه أن يدرك المقام الذي يُعلي فيه شَيْئًا على شيْءٍ، وأن يُحسنَ البَصر بالنَّسق الوظيفي للأشياء، وهذا لا يكون إلا عن بصيرة، وعن تهيئة نفسية وعقلية، وكأنَّه يُعدّ جندَه ليغزو بها ما أغلق من عَتي الحصون، ولا ريب في أنَّ قلوب أهل الاستكبار أعتى من عَتِيِّ الحصون أمام الجند الأشاوس. وهذا يبرز لك أنَّ الجهاد بالكلمة قد يكونُ أشقَّ على المرءِ من الجهاد بالنفسِ مما يُفهم منه مقاربة العالم المجاهد بقلمه الشهيدَ المجاهدَ بسيفه، فالقلم فِي يد العالم المسلم هو السيف في يد الجندي المستبسل. وكلّ يحدثُ تحولاً في أمته إلى الأمجاد، هذا بمداده وذاك بدمه.



تخليص القول في آيات المعقد الثالث (ي: ٦٥- ٨٩)

أشرتُ فيما سبق أن هذا المعقد بدأ بالآية (٦٥) ﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ التي تحدثت عن الامتنان بإنزال الماء من السماء فعطف على (ي ١٩) ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ{١٩} ﴾ التي هي تعقيب علي تعديد النعم في المعقد الأول.

وإذا ناظرت هذه الآية الخامسة والستين في أول المعقد الثالث بالآية العاشرة في المعقد الأول، رأيت أن آية المعقد الأول ذكرت للاستدلال بأحياء الأرض المَيّتة بالماء على البعث ،ولذا قال: ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾

وجعل السماع كافيًا هنا لإدراك قوة الاستدلال، يكفيك أن تسمع، وذلك أنّه قد مهّد السَّبيل إلى اليقين بالبعث لمن أحسن السمع، وذلك بما أقامه في المعقد الأول من الاستدلال بآلائه ونعمه على وحدانيته وعلمه وقدرته العامة، وقدرته على البعث، وكذلك بما قوَّض من شُبهات واعتراضات المستكبرين في المعقد الثاني، كلّ ذلك جعل قوله: ﴿ لقومٍ يسمعون ﴾ هنا آنس .

أما الآية العاشرة والحادية عشرة في المعقد الأول، فقد رتَّب علَى إنزالِ الماء الامتنان بالعطيَّة:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ .



وجعل ذلك الامتنان لملابسته الإنسان بحاجةٍ إلى أنْ ينعتق من إلفه، فقال: ﴿ لقوم يتفكرون﴾ فإحساسُ المرءِ بالمِنَّة فيما أَلِفَ ضعيفٌ، ألا ترى أنَّ المنَّة بما يجرِي في صدورنا من التَّنفس جدّ عظيمة، فأَيُّنا هو على ذُكرٍ دائمٍ أو غيرِ قليل بهذه المنَّة. في الإلف مقتلةٌ للذِّكرَى.

وأمرٌ آخر أنَّه لما كانت الآيةُ العاشرةُ والحاديةُ عشرةُ في مفتتح القول، ولَمَّا يُقرَّر الأمرُ على كمالِه، ولَمَّا تُنقضْ شبهاتُ والمستكبرين كان الأليق أن يقُول: ﴿لقوم يتفكرون﴾ فهذا من التّدرج البديع فِي التذييل.

والمتبصر في مفتتح هذا المعقد يرى أنّ مفتتحه هادٍ إلى ما به يقوم منهاج الداعية إلى الله ﷻ إن تبصّر:

في الآية (٦٥) حديثٌ عن إنزال الماء من بعد الحديث عن إنزال القرآن في الآية (٦٤) التي ختم بها المعقد الثاني (الاعتراضي) ومن السّنّة البيانية للقرآن أنه في غالب الأمر أنه يقرن بين الإنزالين: إنزال الماء من السماء وإنزال القرآن من السماء: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة: ٢٢- ٢٣)

فالماء رزق أجساد والقرآن رزق قلوب، بالماء تعمير الدنيا ،وبالقرآن عمران الدنيا والآخرة، وبالقرآن تحل في عقبى إنزال الماء البركة ،وتأمل كيف اقترن قوله﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ ﴾ الدَّال على البعث، وقوله ﷻ :﴿اتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾



والتبصر في آية إنزال الماء وأثره في الأرضِ والحياة يهدي إلى حسن التبصّر والتدبر في آية تنزيل القرآن ،وأثره في القلوب والحياة كذلك تتنادى الآيات، ويتآزر ،ولكن أكثر الناسِ لا يعقلون.

وتنظر في آيات هذه السّورة (النحل): ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴾

جمع بين الإنزالين، وجعل إنزال الكتاب عليه ﷺ خاتمة المعقد الثاني، وجعله لتبين النبيّ ﷺ الذي اختلف فيه الناس ،وهذا على الأنس بما جاءت له آيات المعقد الثاني(الاعتراضي) فهي آيات تعرضُ شبهات واعتراضات المستكبرين، وقد بينتها الآيات، ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾(البقرة:٢١٣)﴿...هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (فصلت:٤٤)،وجعله لقوم يؤمنون:﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ وتبصر علاقة هذا ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾بالدعوة ومنهجها فالهدى " بيان طريق العلم المؤدي إلى الحقّ" وتلك رسالة الداعية العظمى ،والرحمة هي أهم أخلاق الدّاعية ،وبها يمكنه تحقيق رسالته على الوجه الذي يرضي خالقه ﷻ .

وجعل إنزال الماء ذكرى للبعث الذي سيقت آياتُ المعقد الثالث لتقرير قدرة الله ﷻ وأنه واقعٌ لا محالة، وجعلت هذه الآية مفتتح هذا المعقد الثالث.



وهو من بعدُ يُرتّب على ذكر الإنزال الماء ذكر ما ينتجه الإنزال في مرأى العين: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

في هاتين الآيتين اعتبار بها له كان البيان هنا:الأول الأظهر: إثبات القدرة على البعث الذي هو لازمٌ من لوازم وحدانيته وعدله وعلمه، والآخر وهو الألطف الإشارة إلى المنهج الأمثل للداعية في ممارسة رسالته.

الأول: إثبات البعث يتراءى لك في إخراج اللبن صافيا من بين فرث ودمٍ، فمن كان على ذلك القدير، أفيعجز عن أن يخرجنا من بطن الأرض من بين ما فيها خالصين كما كنا في الدّنيا لم يضع منّا شيْءٌ على تطاول أزمان الممات ؟

وإذا ما أقدركم على أن تستخرجوا من الثمرات ما هو مكنون فيها، أفيعجز الذي أقدركم على ذلك عن أنْ يستخرجكم من الأرض التي أودعكم فيها ؟

والآخر: بيانٌ للداعية إلى الله ﷻ أن يستخرج الهدى من الضلالات يخلصه منها بثاقب بصيرته ولقانيته وحكمته استخلاص اللبن (رمز الفطرة والهدى) من الفرث والدم (رمز القذر والنجاسة).

وتبصر المفارقة العظيمة بين لون اللبن ولون ما استخرج منه(الدم) ورائحة اللبن وطعمه وما استخرج منه (الفرث) !!!

وفي هذا إشارة إلى أهمية التلطف في استخراج معالم الهدى وملامحه في ممارسة الدعوة، فالفراسة واللّقانية من مقومات منهج الدعوى إلى الله ﷻ



وتأمل الإشارة اللطيفة العليّة في قوله(خالصا سائغًا) إنّها إشارةٌ تهدِي الدَّاعيةَ أن يكون استخراجه الهدى خالصًا من كل شبهة أو غموضٍ ولبس، وإثارة لتوقف، وأن يكون عرضه الهدى وطرحه للمدعوين سائغًا يجري إلى القلوب وفيها، فتتشربه كما يتشرب المرء اللبن، ولذا قال للشاربين،وكأنَّ في هذا إيماءً إلى أن يكون الداعية مقتدرًا على أن يُشْرِبَ المدعويين الهدى، فيختلط بهم. عليْه أن يسعى إلى أن يكون مَليكا لما يُحقق له ذلك احتسابًا لوجه الله ﷻ

وفي قولهﷻ : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ{٦٧} ﴾ بيان للداعية أنّ المرء إذا أحسن المنهج وأتقن الممارسة استخرج الرزق الحسن، وإن هو أهمل أو ضلّ أو تقاعس فإنه يستخرج السكر الذي يغلق العقل ،ويكبله، فيحيل النعمة نقمة،ويستخرج من النور ظلمة، فيكون هلكة قومه ونفسه من قبلُ.

كلُّ ذلك فيه كما ترَى منهاجُ تربية عَلِيّ للدعاة إلى الله ﷻ.

ويعطف على نعمة إنزال الماء نعمة أخرى هي معقد العبرة العظمى:

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

والعلاقة بين الإيحاء والإنزال جد قوية وظاهرة ،وفي اصطفاء اسمه (الرب) مضافًا إلى ضمير خطاب النبيّ ﷺ إيماء إلى أَنّ في هذا الإيحاء للنحل عظيمَ تفضّل، فمن السُّنة البيانية للقرآن أنه إذا أراد الإشارة إلى عظيم التجلي بكمال التربية بما يحدثك عنه يأتي باسمه(الرب) مضافًا إلى خطاب

النبيّ ﷺ لأنه لم يتجل بكمال الربوبية وجليلها على أحدٍ من عباده كما تجلى لسيدنا محمد ﷺ، وفيه إشارة أيضًا إلى أن العبرة العظمى في هذا الإيحاء لن يفهمها عن الله سبحانه وتعالى أحدٌ كمثل ما يفهم النبي ﷺ، وفي هذا إيماءٌ إلى ما يتضمنه حال النّحل من لطيف وطريف العبرة والهدى ،ولكن أكثر الناس لا يعقلون.

ولما كان حال النحلة من أكمل أحوال الكائنات شبه النبي ﷺ بحالها حال المؤمن.روى أحمد بسنده عن عَبْدِ الله بْن عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ مرفوعًا إلى النبي ﷺ:" وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ مَثَلَ الْمُؤْمِنِ لَكَمَثَلِ النَّحْلَةِ، أَكَلَتْ طَيِّبًا، وَوَضَعَتْ طَيِّبًا، وَوَقَعَتْ فَلَمْ تُكْسَرْ وَلَمْ تَفْسُدْ "...)"

الداعية – وكلُّ مؤمن داعية بلسان حاله، وهو الأجلى بيانا والأصدق نبأً، والأنجع أثرًا والأكرم عطاء – لِيكنْ حالُه حالَ النحلة يأخذُ من كلّ فنون العلم، ويستخرج منها أحسنها غذاء وشفاءً، فمن ابتغى الغذاء وجد ومن ابتغى الشفاء وجد، ومن ابتغى التفكه وجد، ولا يكون من ذلك إلا ما ينفع، وقد جمع النبي ﷺ للمؤمن النحلة أربع خصال: تأكل الطيب – وتضع الطيب – وإذا وقعت على عود لم تكسره – ولم تفسد

وأوَّل الخصال هو رأسها ومعدنها : (أكلت طيبا) فمن كان غذاؤه طيبًا فلن ينتج إلا طيبًا في ظاهره وباطنه، وغذاء المؤمن عامة، والدَّاعية خاصة الإيمانُ والعلم والحكمة، وهذا للمؤمن بمنزلة رحيق الأزهار للنحلة.



وكان من همّ النبيّ ﷺ في هذا أن يُبرز جانب المسالمة الاجتماعية والإصلاح في الأرض، فأبرز خصلتين عظيمتين: (وإذا وقعت على عود لم تكسره - ولم تفسد)) وما أحوجنا إليهما في كل عصرٍ ومصر.

فهذه الآية: ﴿ وأوحى ربّك إلَى النّحل﴾ تحملُ بنظمها العليّ إلى القلب المتبصر فيضًا من الهدى، ففي كلّ كلمة نورٌ تشرقُ به القلوب. لا يسعُ القلب إلا أن يتدبّر هذا الاصطفاء لفعل (الوحي) وإسناده إلى اسم الربوبية المضافِ إلى كاف خطاب النبي ﷺ كما أشرت من قبل، فهو وحي فيه لطف وفيه عظيمُ تربية، وفي بيان ما أوحي بأن جعلها هي التي تتخذ، عليها أن تعمل، ولا تتكل، وأن يكون عملها اتخاذًا، وهذا فيه دَلالةٌ على أهميّة الاجتهادِ في العمل، ولذا لم يقل ابني، أو اسكني، وبدأ بالجبال لأنها الأشقُّ من جهة، والآمنُ من ثانية، ثم هي الأكثرُ فِي أرضِ العربِ، وهي الأنقى، فما يُنتج في بيوت النّحل في الجبالِ أنقى وأطيبُ، ثمَّ أردفه بما هو أدنى ﴿من الشَّجر﴾ ثم ما هو الأدنى من كُلٍّ ﴿مما يعرشُون﴾ وفي هذا أيضًا هدايةٌ للدَّاعية أن يحسن تنويع مصادره، ومجالاته، وأن يختار الأمثل، إلاَّ إذا تَعسّر عليه أو تعذّر. ويأتي قوله ﷻ : ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً ﴾ وفي هذا من التربية المنهجية للداعية ما فِيه: الإحاطة في مصادر المعرفة،واليسر في الدعوة والمسلك، فإنّ الرفق لا يكونُ فِي شيءٍ إلاَّ زانَه. وأولى الناسِ باتخاذ الرفق هم الدّعاة: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩)

وفي اصطفاء (سبل ربك) إشارةً إلى امتدادِ السّبيل واستقامته وإبلاغه الغاية، وإشارة إلى أنّ هذا يتخذ من فيضِ الرّبوبية، فمن حُسنِ التَّربية في المنهجِ أن يسلكَ الدَّاعية سبيلاً لا ينقطعُ، ولا يلتوِي، ولا يضِلّ. فتضارب الطرق والمسالك قد يؤدّي إلى ما لا تحمد عقباه.

ويأتي قوله ﷻ : ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ ليأخذ منه الداعيةُ ما يجبُ عليْه أن ينتج مما تلقّى من العلم والمعرفة: شرابٌ متنوعٌ يُصلِح كلَّ عصرٍ ومصرٍ، وينبئُ الحقّ ﷻ أن في هذا الذي أهداه منهاج حياة آيةً جليلة لمن كان قوّاما بالتفكير، يقلبُ الأمور، يسبر أغوارها، يعتصرها، لا يحل حتّى يرتحل.

كذلك تأتي هذه الآية حاملةً فيضًا من التذكير بالنعم التي يقرر التفكر فيها يقيناً بوحدانية الله ﷻ وكمال علمه وقدرته على كلّ شيءٍ وعلى البعث والإخراج من باطن الأرض، وحاملة فيضًا من الإبانة عن المنهاج الأمثل الذي يكُون عليه الدّاعية (النحلة) في قومه.

وتوالت بعد ذلك الآياتُ تعدّد النّعمَ المِتنّ بها على الإنسان، وفي كلِّ نِعمةٍ ما يُستدلُّ به على وحدانية الله ﷻ وقدرتِه على كل شيءٍ، وعلى البعثِ خاصة وفي ثبجِ هذا التعداد للنعم الممتنّ بها استدلالاً يصرُّح بأمرِ السَّاعة قائلاً: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾.

ثم يستمرّ في تعديد النعم ليختم ذلك بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ وهذه في هذا المعقد الثالث تناظر قوله ﷻ في المعقد الأول:

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾ ﴾ وتدبر خاتمة كل: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ ، ﴿ إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وكيف أن قوله هنا ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ أليق بخاتمة الامتنان، فقوله لعلكم تسلمون إغراء بإسلام الوجه لله ﷻ في جميع الأمور ، وإسلام الوجه له ﷻ هو جوهر العبادة التي هي بلوغ الغاية في صدق التذلل.

﴿ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾

﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴾ (النساء:١٢٥)

﴿ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾

فإسلام الوجه لله ﷻ هو الغاية التي يساقُ العباد لتحقيقها، ويقبل على سيد الدعاة إلى الله ﷻ مخففًا عنه ثقل الشعور بعظيم الرسالة، مؤكدًا له أنّه ليس عليه إلا أن يجتهد في الإبلاغ، فلا يدع سبيلاً من سبل ربه ذللا إلا سلكه، مبرزًا له أن من يتولّى معرضًا، فما عن جهالة قامت به من تقصيرك في الإبلاغ ،بل هو الاستكبار: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ {٨٢} يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ {٨٣} ﴾ وهذه الآية تتلاحظ مع قوله ﷻ في مفتتح آيات المعقد الثاني: ﴿فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ {٢٢} ﴾ فتدبر كيف استفتح الثاني بما ختم به الثالث ،كما ختم الأول﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ بما ختم به المقدمة: ﴿ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ {٢} ﴾ فتبصر كيف تقام معالم الهدى على الطريق،وفي هذا تربيةٌ منهجيّةٌ للدَّاعيةِ يتزود في مسيره إلى طَلِبته.

وإذا ما أقام الله ﷻ التصريح بالبعثِ في ثَبج تعداد النعم في هذا المعقد الثالث فإنّه يختمُ المعقدَ أيضًا ببسطِ القولِ الصَّريح في إثبات البعث على نحو لم يَسبق في السورة قائلاً ﷻ:

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ النحل: ٨٤ ــ ٨٩

وهو يعطف قوله(﴿يوم نبعثُ..} على مقتضى قوله: ﴿ فإنما عليك البلاغ المبين ﴾ أي فبلغهم بلاغًا مبينًا وخوفهم يوم نبعث من كل أمةٍ شهيدًا أنه قد بلغوا الحقّ، فتولوا، وحينئذٍ لا يؤذن للذين كفروا أن يعتذروا ويعتبوا، فإنهم لا يستعتبون....

وكمثله قوله: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاء﴾

وهو يختم آيات المعقد الثالث بالحديث عن إنزاله القرآن على النبي ﷺ ووظيفة هذا الكتاب: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ {٨٩} كمثل ما ختم المعقد الثاني:﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ {٦٤}

وتبصر ما ختم به آخر المعقد الثاني،وما ختم به آخر المعقد الثالث:

﴿ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ {٦٤} ﴾

﴿ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ{٨٩} ﴾

هنالك تبيين الذي اختلفوا فيه،وهنا تبيين لكل شيءٍ، هكذا يترقّى التّبْيينُ، وهنالك ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{٦٤} ﴾ وهنا:﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ{٨٩} ﴾ والإسلام الذي هو إسلام الوجه لله هو ثمرة الإيمان، ولا يكون إلا ممّن كمل إيمانُه وقرَّ في قلبه وملك جوارحه وظاهره وباطنه ، ولذلك جاء قوله﴿وبشرى﴾ وسيؤكّد هذه البُشرى مرَّة أخرى بعد آيات: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل:١٠٢) وسيستفتح سورة النمل بهذه البشرى أيضًا:﴿ طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ{١} هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ{٢} الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ{٣} ﴾

وممَّا يحسنُ التّذكيرُ بِه أنَّ آياتِ المْعقد الثالث (ي ٦٥– ٨٩) معطوفةٌ علي خاتمة آيات المعقد الأول استطعنا أن نبصر التنسيق البديع بحيث يتأتي لمن أراد أن يرسُمَ تتابعَ الآياتِ في كلٍّ، فيُشكّل دائرةً مُلتحمَةً بشُعبةٍ في الدَّائرة الأُخرَى.

وكذلك التذكيرُ بأنَّ آيات المعقد الثّالث (الآيات ٦٥-٨٩) وإِنْ تشابتْ مع آياتِ المعقدِ الأول (الآيات: ٣– ٢٢) في تعديد النَّعم إلا أنها تختلف معها اختلافا جوهريًّا حيث إِنَّ تعديد النعم في المعقد الأول (ي /٣-٢٢) كان القصدُ الرئيسُ إلى الاستدلال المتضمن امتنانا، فهي

تخاطبُ العقل أولاً والنفس من خلالِه، أمَّا التَّعديد في آيات المعقد الثالث:(ي: ٦٥– ٨٩) فالقصدُ الرَّئيس إلى الامتنان المتضمّن استدلالاً، فكانت تخاطب النفس أولاً بعد أن حطمت آياتُ المعقد الثاني(الاعتراضيّ) (ي: ٢٢– ٦٤) شُبُهاتِ واعتراضات المستكبرين ولذلك رأينا آياتِ المعقد الثَّالث (ي: ٦٥– ٨٩) تضعُ في داخلها ما تحطِّم به ما قد يبقَى من شبيهاته عالقًا ببعض النفوس، فدمغتها بالآيات (٧٤–٧٧):

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ۞ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) ﴾

فتكونُ مسيرةُ السُّورة على هذا النحو في تصاعدٍ مُستمرٍ ونموٍّ مطَّرد يتجاوبُ مع طبيعة النَّفس والعقل حيث بدأ بمخاطبة العقل، ثم حطمت شبهات ما تمرَّد منه، فتركته أعزل، ثم انعطفت على النَّفس تخاطبها في آيات المعقد الثالث (٦٥–٨٩) وتقنّعها بمنطِق الشُّعور بعد أن خاطبت العقلَ بمنطقه، فجمعت السُّورة بين منطق العقل ومنطقِ الشعور.

وفي هذا منهجٌ تربويٌّ للدّاعية إلى الله ﷻ، وما يحسُن به أن يتَّخذه من سبيل إلى تحقيق رسالته. فهذه طريقةٌ في الحِجاج والمجادلة بالَّتي هي أحسنُ تُبلِغُ المقصدَ. فمضمونُ السُّورة ومقصُودها هما اللذان اقتضيا هذا النهج التّركيبيّ البيانيّ، فأنبأ منهج البناء عن المضمون والمغزى إنباء الصورة (النظم) عن المعنى على مستوى الجملة والآية، فكما أنّ نظرية النّظم تؤكد

أن بناء صُورة المعنى هو انعكاسٌ لبناء المعنى، فالأمرُ قريبٌ منه في مستوى البناءِ التَّركيبيّ للسُّورة هو ثمرة لمضمونها ومغزاها، وهذا يؤكِّد أنَّ البلاغة القرآنية قد فتحتْ هذا السّبيلَ الذي لم تكن العرب تسلكه أو تعرفه، وهذا هو المعلمُ الأهمُّ والأعلى من معالم البلاغة القُرآنيّة التي لا نظير لها في بيان أحدٍ من الخلائق.

خاتمة معاقد السّورة: الدعوة إلى مكارم الأخلاق (الآيات /٩٥- ١٢٤).

تنزل الآيات (٩٥- ١٢٤) منزلة التعقيب والخاتمة للمعاقد الثلاثة، وهي هنا بمثابة الوصيّة للدَّاعية إلى الله ﷻ السَّالك المنهج الذي رسمته السورة في معاقدها الثلاثة، فهذه الوصيّة الربّانية للداعية ترسيخٌ لدعائم هذا المنهج في قلبه، وترسيخ لقدم الدَّاعية على لاحب هذا المنهاجِ، ولذا كانت هذه الخاتمةُ الوصيّةُ قائمةً بالدّعوة إلى مكارم الأخلاقِ التي يتحلّى بها المسلمون عامَّة والدّعاة منهم خاصة .

تبدأُ الوصيَّة من أول قول الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ إلى أول قوله ﷻ: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾

استفتحت الوصيةّ بالخُلق الكليِّ الذي تندرجُ تحته كلُّ مكارمِ الأخلاق وهذا من السّنة البيانيّةِ للقرآن. يجعل رأس الأمرِ ما هو كليٌّ ضابطٌ لما يتوافدُ من بعده،. هذا التَّناسلُ في توارد المعاني يؤكّد مبدأَ الإمامةِ والانتظامِ والاطّرادِ والتّوحّدِ في القصد في الحياة الإسلامية في كافة جنباتها، لابدَّ من



الإمامِ، ففيه ضبطٌ لحركة الحياة ألا تَرَى أنّ أعظمَ حالاتِ المسلمِ صلاتُه، جعله الله ﷻ من وراء إمامٍ يتقدمهُم بين يدَيْ ربه ﷻ وهم يفدون إليه، ويقفُون في بيته يستجدُون رضوانه، ولو علم الأئمةُ في بيوت الله ﷻ قدر مقامهم هذا لما كان بملك أحدِهم أن ينصرفَ باطنه عمَّا جُعلَ إمامَ قومِه فيه ،وفي هذا تربيةٌ منهجيّة للدعاة لو كانوا يتفكرون.

المهم أنّ البيانَ القرآنيّ بستفتح القول هنا بالخُلق الكلي: رأس مكارمِ الأخلاق:(العدل)، وهذا إذا ما تحقق في أيّ مجتمع، فهو المجتمع المتكامل، بل الكامل، فمجتمعٌ لا ظلم فيه للنفس والآخر هو المجتمع المثاليّ، ورأسُ ظلمِ النّفسِ الشركُ بالله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢﴾ (الأنعام٨٢) وهذا ما أقيمت سورة (النحل) لبيان منهاج الدعوة إلى التّطهر من أدنى صوره، فهو أخفى ما يكونُ حركةً إلى غير قليلٍ من النفوسِ .

وأحقّ الناس بإقامة العدلِ مع نفسِه والآخرين هو الدَّاعية إلى الله ﷻ، فالعدلُ مفتاحُ مغاليق القلوب، لأنّه دعوةٌ بلسان الحال، ولسان الحال أبلغ وأصدق وأنجع من لسان المقال، وما يضرُّ الدَّعوة الإسلاميّة لُكنة أو حُبسة في لسان الدَّاعية بمقدار ما يضرُّها لكنةٌ أو عُجمةٌ في سلوكه وأخلاقه.

الاستهلال بأنَّ الله ﷻ يأمرُ بالعدل والإحسان دون تعيين المأمور بذلك، ودون تعيين من يكون العدل والإحسان معه فيه دلالة بيّنة على أنهما مطلبان من كل مسلمٍ، ومن الدعاة خاصّة، ومطلبان لكلّ إنسان مسلمٍ أو غيرِه،



فالمسلم والداعية إلى الله ﷻ فرضُ عينٍ عليه أن يعدل وأن يُحسن مع الآخرين، فالعدل مبدأ الأمر، والإحسان أعلاه.

ويأتي من بعدهما الأمر بإيتاء ذي القربى والإيتاء هنا أعلى كيفية من الإعطاء في حق البشر: الإيتاء يكون عن طيب نفسٍ وشعور بالسعادة عند ممارسة الفعل، والشعور بأنّ المؤتِي ليس بالمتفضّل على من يؤتيه من فضل الله ﷻ، بل إن الذي يُؤتَى (بفتح عين) هو المتفضل على المْؤتِي (بكسر العين) إذ قبل منه نواله، ولولا إحساس من أنت مؤتيه من فضل الله ﷻ الذي في يمينك أنك خيرٌ منه لما قبل ما أنت مؤتيه إذ كيف يقبلُ المرء تفضلاً ممن هو دونه؟! ذلك في منطق الفطر السوية غيرُ مقبول.

والإيتاء كما قلتُ فعلٌ يصدرُ عن نفسٍ رضيّة ترَى في أن تمنحَ غيرَها إحسانا أعظمَ من أنْ يمنحَها غيرُها

وهو إذا يُعيّن من يؤتى العطيّة في قوله: ﴿ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى﴾ فهذا يشملُ كلَّ مسلمٍ، القربَى هنا ليست قربَى النسبِ بل هي قُربى الإسلام، وقربَى الإسلام قُربى حسب: ﴿ إنما الْمؤمِنونَ إخوةٌ(الحجرات:١٠)﴾

إيتاءُ ذي القربَى منزلة خاصة هي فوق منزلة الإحسان، وهو لم يعين ما يؤتيه المرءُ لذي القربى، وكأنَّ كلّ ما فاضَ عن حاجتك هو محل لأن يؤتى لذي القربى إذا ما احتاج إليه، فما يحتاج إليه ذو قربى مما لست بحاجة إليه مما وضعه الله ﷻ في يمينك، فإنّ الله ﷻ يأمر بإيتائه ذي القربى.

هذا هو السُّمو في مكارم الأخلاق، وهو يقابله بما لا يليق بمسلم أن يتلطخ به، ولذا نهى الله ﷻ عنه: ﴿ وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ وأنت تلحظ النَّسق الدَّائري، فالبغي المختوم به يقابل (العدل) المبدوء بِه، والفحشاء تقابل ﴿إيتاء ذي القربى﴾لأنّه إذا ما كان إيتاءُ ذي القربى زائدًا بخصُوصيته على الإحسان، فإنّ الفحش زائدٌ على الظلم، لأنّه فجورٌ في الظُّلم، ولذا غلب هذا على فعل الزنا، وهو من أعظم البغي والظلم، لأنَّ الاعتداء على الأعراض أنكَى أثرًا من الاعتداء على الأموال بل الأرواح، يعرف ذلك الشرفاء.

وإذا ما كان الإحسان ذروة العدل، فهو منحُ ما ليس بمستوجب بل مستحسن، فالمنكر يطلقُ على ما هو الأدنى من العصيان، فتنكره الفطرة، ولذا كانت دائرة (المنكر) متسعة تبدأ في حق الأصفياء بما هو خلاف الأولى، ليتصاعد في حق الدهماء إلى ما هو الحرام.

ويختم الله ﷻ مفتتح الوصية بقوله ﷻ ﴿ يَعِظكُمْ لَعلّكُمْ تذَكّرون﴾ والفعل المصطفى هنا هو (التذكر) ذلك أنَّ ما مضَى في المعاقد الثّلاثة قرَّر الأمور في القلوب، لكنّه قد تُغفلُ ،فلا تحتاج إلى تقرير ومراجعاتٍ، بل يكفيها التَّذكيرُ. كذلك وقعت هذه الفاصلة: ﴿ لَعلّكُمْ تذَكّرون﴾ موقعًا آنسًا. وكان قوله: ﴿يَعِظُكمْ﴾ جدَّ آنسٍ، فالموعظة لا تؤسِّسُ علمًا جديدًا، بل هي تثوِّر ما كان مؤسَّسًا قبلُ، فالعالِمُ يؤسِّسُ، والواعظُ يثوّر ما أَسَّس العالمُ.

فخاتمة السُّورة تنزِلُ من المعاقد الثلاثة منزلةَ الـواعظِ مـن العـالم ،وهـذا مـن السُّنن البيانية للقرآن: الترقّي والتصاعد .

وجاء قولـه ﷻ ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ معطوفًـا عـلي أول قولــه ﷻ ﴿إنَّ اللهَ يـأمُرُكُمْ... ﴾ لما تـضمَّنه هـذا الخبر مـن معنـى الأمـر، فكأنـه قيـل اعـدلوا، وأحسنوا، وآتوا، واتركوا الفحشاء...أو هو معطوفٌ على ما أفهمه السّياق، وما ختمت به الآية من قوله ﷻ ﴿لعلكم تذكرون﴾ أي أمرتكم ووعظتكم به لعلكم تتذكرون فتذكروا والزموا ما أمرتم به، واجتنبوا ما نهيتكم عنه.

وأوَّل المأمورات الوفاءُ بالعهد الـذي أخـذه علـيكم الحقُّ ﷻ في عـالم الذّر لأنّه أوّل عهـد ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ (الأعـراف:١٧٢ والوفـاء بالعهد من العدل الذي هو أوّل المأمورات في الآية التسعين

وهكذا تستمر الآيات ترسُـم الطريـق أمـرًا بمعـروف ونهيـا عـن منكـر، ليأتي قولـه ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ ليقيم الدَّاعية مقام المرابطة التي لا تلتفت إلى عرضٍ من الدنيا، ولا تتخذُ الـدَّعوة سبيلاً إلى مكسبٍ من زُخرفِ الحياة الفانية، ولا يقوّض سعي الدَّاعية كمثل ما يقوّضه الالتفاتُ بعمله إلى عرضٍ مـن الـدنيا، هنالـك تتهـاوَى القُـوَى، وتخورُ العزائمُ، ويضلُّ القلبُ، وينفلتُ الّلسانُ غير معقـولٍ بعقـال الحق،

فيهدم في لحظة ما بُني في سنوات. فإذا بالداعية كالتي نقضت عزلها من بعد قوة أنكاثها، ونظرة في واقع الدّعاة في زماننا هذا تريك صدق الذي قلتُ.

بيّن الله ﷻ أمرًا بالغ الأهمية لكلّ مسلم داعيةٍ ومدعّوٍ إلى الخير: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾ .

هاتان الآيتان إذا قامتا في قلب المسلِم عامّة والدّاعية خاصّة استفحل إخلاصُه وطلبُه القربَى ممّن له مُلك السموات والأرض ﷻ، واستوثق نجحه في فؤاده، فإذا هو لا يَلوِي على شيءٍ ممَّا في أيدي الناس نفعًا أو ضُرًّا، وتلك التي عليها يكون مبلغ النُجح. ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾(المجادلة: ٢٢)

ومنْ فيوضِ الرحمة يأتي بيانُه ﷻ السياج الذي يحاجز المسلم عامة، والدّاعية خاصّة من أفاعيل الشيطان، فيهدي إلينا قوله﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) ﴾

كذلك يبين لنا ﷻ عجز الشيطان على الرغم من تقاسمه بالله﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) ﴾(الأعراف:١٦ – ١٧)

وفي قولـــه:﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) ﴾أمنةٌ تقيم القلبَ المسلم في حصانة وقوة وثقة بالنصر المبين على الشيطان وحزبه.

ويبين لهم مواقف أولئك الذين يتولون الشيطان، فهم بسبب من تلك الموالاة مشركون بالله ﷻ منزل القرآن الكريم الذي هو السياج لهم إن عقلوا من مذلة التذلل للشيطان، فقال ﷻ:

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ وهو إذ يُبين ذلك لم يغلق الطريق على من أناب منهم، ورغب في الهود والتّوب، فأبرز أن من شاء ذلك، فإن الله ﷻ المتجلي بكمال فيض ربوبيته على خيرة خلقه هو لأُولئك الرَّاغبين في الهود والإنابة:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ ﴾

تبصّر فيض الربوبية المتدفق في مجرى هذه اللام في ﴿للذين﴾ فمن كان الرب له، فأي نوال ذلك الذي يتوافد عليه ؟!!!

والنبيّ ﷺ يصور لنا إقبال الله ﷻ علَى من هاد وأناب:

روى البخاري في باب التوبة من صحيحه بسنده عَنْ الأَعْمَشِ عَنْ عُمَارَةَ بْنِ عُمَيْرٍ عَنْ الْحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ حَدِيثَيْنِ أَحَدُهُمَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ وَالْآخَرُ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ:

" إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا قَالَ أَبُو شِهَابٍ بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ، ثُمَّ قَالَ:" لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلًا وَبِهِ مَهْلَكَةٌ وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ قَالَ أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي فَرَجَعَ فَنَامَ نَوْمَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ "

ويأتي قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ{١١٠} ﴾ مبينة وجها مجلّى هذه (اللام) مجلاها المغفرة والرحمة. ولهذا فصل قوله ﷻ::﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ{١١٠} ﴾ عن قوله::﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ ﴾

ويستمرُ البيان ليختمه بتأكيد الوعد لمن تاب وأناب:﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ{١١٩} ﴾ وفي هذا من التربية المنهجية للمسلمين عامة،والدعاة منهم خاصّة. في هذا تربية لهم وتعليمٌ ألا يغلقوا أبواب

الإقبال والإفضال في وجه من تصدى لهم يومًا، فلما انكشف الغطاء أناب. لتكن قلوبكم مفتحة بالرضوان لمن عرف الحقّ فتبعه.ولو أنّ الدُّعاةَ تأدبوا بذلك لاكتسبوا للهدى جندًا أو أعوانًا، ولأزاحوا من سبيلهم كدًى وعقابيل هم أحوج ما يكونون إلى إزاحتها. وليس أخسر من داعية يسعى إلى تغازر مناوئيه من حوله، إنّ تأليف القلوب منْ أقوى عوامل استفراغ السبيل في مسيرتك إلى الخير الذي إذا ما فرغت له قوي، فكان أقدر على أن يقوم قياما تخرّ أعاصير الباطل تحت قدميه، ولكنك ترى غير قليل من الدُّعاة ومن يريدون أن يعلموا الناس الخير يشتدون في خطابهم، ويقسون على من ركب متن الجهالة، وسقط في ردغة الضلالة، ظنا منهم أن في هذا عزة الدعوة والدعاة، كلاّ. إنّ الرفق لا يكون في شيءٍ إلا زانه. ليكن الداعية لمن أناب عن جهالة، وتاب من ضلالة، يصطفيه، فيصفّيه من دغلٍ قد يبقَى من أثارة ويَشْفِيه من عَباقيل ناشبة بقلبِهِ فالدّعاة أطباء القلوب، ، فليكونوا لهم كما كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهم:

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ﴾

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ ﴾

فهذا من التخلق بصفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التي يحبُّ الله عَزَّ وَجَلَّ أن يتخلّق بها عباده.



ويقـدّم للـدعاة الأسـوة والقـدوة أبـا الأنبيـاء ،وإمـام الـدعاة إلى الله ﷻ سيدنا إبراهيم عليه السلام :

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٢١ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٢٢ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٣ ﴾

وفي هذا إشارة إلى أنّ ما يدعون إليه من مكارم الأخلاق، وينهـون عنه من مفاسدها إنما هو الذي جاء به أبوهم إبراهيم عليه السلام، وهم من أشدّ الناس استمساكا بميراث آبائهم، وأحق الآباء بهذا أبوهم إبراهيم عليه السلام، ففتح لهم باب الأمل في العودة إليه استجابة لدعوة أبيهم إبراهيم عليه السلام، فوضح لهم حقيقة أبيهم عربًا، فإن كانوا كما يدّعون حقًا أنهم علي دين آبائهم، فأبُوهم الأكبر الأعظم الأمّة عليه السلام ما كان مشركًا ،وإنّما كان أمة قَانتًا لله حنيفًا ،ولم يك قطُّ من المشركين.

هذه الآيات﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٢١ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٢٢ ﴾

جاءت لتعلّل ما قبلها ولتجمع لأبينا إبراهيم عليه السلام من العظمة التي بها كان وحده جديرًا بأنّ يؤمَّه كلُّ واحد وأن يتبعه جميع البشر ثم أضاف إلى ذلك وصفا هو أعلى في نفسه ومن علو منزلته، ومن ثَمّ عطف على ما قبله بـ(ثم) الدّالة على الترتيب الرتبي المقرر لعلو رتبة ما بعدها على ما قبلها كما



أنّه صرح بالأمر باتباعه موجها مباشرة لأَحبِّ خلق الله إليه ﷺ، وفي هذا إشارة إلى أنّ من أعظم خصائص سيدنا إبراهيم ﷺ أن صار مقتدَى رسول الله ﷺ: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {١٢٣} ﴾ فكان ذلك تصعيدا لإلهابهم لقبول الدعوة الإسلامية.

وبهذا تنتهي الآيات التي هي بمثابة خاتمة لمعاقد السورة وتتميمٍ لها.

وعلينا أن نلحظ جيدًا أنّ السورة كانت تبرز التصريح بوحدانية الله ﷻ في مفاصل القول نجد ذلك في ما أسميناه براعة استهلالٍ في أخره الآية الثانية ﴿ أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا ﴾ وفي آخر آيات المعقد الأول (ي٣-٢٢):﴿ إلهكم إله واحد﴾ وهذه الجملة هي صدر للآية التي هي صدر المعقد الثاني (ي: ٢٢- ٦٤) وقد عطفت عليها بالفاء الدالة على التعقيب والتفريغ. ثم تأتى آيات المعقد الثاني لتنصّ في وسطها صراحة على النهى عن الإشراك ولتصرّح بالوحدانية:﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾.

وتنتهي حديثها ببيان أنَّ ما أنزل القرآن الكريم على المصطفى ﷺ إلا ليبين لهم الذي اختلفوا فيه. ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ومن أبرز ما اختلفوا فيه الوحدانية والقدرة ولاسيما القدرة على البعث فتأتى آيات المعقد الثالث (ي:٦٥- ٨٩) لتختم حديثها بمثل ما

ختمت به آيات المعقد الثاني ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ ليـأتي التعقيـب على هذه المعاقد مستهلا بالتصريح بـالأمر بالعدل وأول درجات العدل الإيمان بوحدانية الله ﷻ وكمال علمه وقدرته، ثم تختم آيات هـذا التعقيب بحديثها عن أعظم الموحدين سيدنا إبراهيم عليه السلام وتنفي عنه الإشراك ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وبهذا تستطيع أن تستوضح جيدا براعة التوزيع لإبراز عناصر السورة في مواقع دقيقة وحساسة ،وتبصر مستويات الترقّي والتصعيد في حركة المعنى القرآني في السُّورة، ومستويات التشابك بين عناصره.



فاصلة السّورة

إذا ما كان لكلّ آيةٍ من آيات الذكر الحكيم في غالب الأمر فاصلةٌ فإن للسُّور القرآنية في غالب الأمر كذلك فاصلة. وفاصلةُ سورة (النّحل):(ي: ١٢٥- ١٢٨) تضمنت تكثيفًا لمقصدها، فصرحت بمنهاج الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ .

الأمرُ بالدّعوة هنا غيرُ مقيّد بمن يُدعَى إلى سبيل الله جل جلاله ، فكلُّ من هو صالحٌ لأن يُدْعى، فإنه تجبُ دعوته، وفي هذا تكليفٌ بأن يسعَى المسلمُ بالإسلام إلى كلِّ بقعةٍ يكونُ فيها إنسانٌ، وأن يكونَ المسْلمُ مقتدرًا على أن يحسِنَ مخاطبةَ كلّ إنسان باللسان الذي يفهم عنه، وبالمنهجِ الذي يفعلُ فيه فيثمر، كذلك يجبُ أن يُفهم إطلاقُ فعلِ الأمر من التَّقييد بمفعولٍ، وهذا يؤيدُه قول الله ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ (الزخرف: ٤٣- ٤٤) فهو شرفٌ للنبي صلى الله عليه وسلم ولقومه العرب الذين جاء بلسانهم القرآنُ، وإنهم جميعًا لمسؤولون عن تبليغِ هذا الكتاب إلى النَّاس كافةً في أمصارهم، وبألسنتهم، ولا يكلّف غيرُ العرب بأن يتعلموا العربية في مفتتح الأمر، بل علينا نحن العربَ أن نتقن كلّ لسان فنبلغ الإسلام به إلى أهله، ثم من بعد نعلّمهم لسان العربية. كذلك يكون الأمر.

وفي تسميته الإسلام سبيل ربك من الإغراء به كلّ داعٍ ومدعوٍّ. كلمة سبيل تحمل معنى الامتداد والاعتدال والانتهاء إلى الغاية .

وهذا يحملُ إلى قلبِ سالكه أمنةً أنه بالغٌ غايته.



وفي إضافة السبيل إلى قوله(ربك) مخاطبا به النبي ﷺ في باكرِ الأمر ثم كل داعية ما يُفهم أنّه سبيل تربية في أُفقها الأكمل والأجمل، فإضافة اسم الرُّبوبيّة إلى كاف خطاب النبي ﷺ في البيان القرآني تحمل إعلامًا باتساع فيوض العطاء. وفيه دلالة على أنه متسعٌ لا حرج فيه، فهو يتَّسع كلَّ العباد على اختلافِ أعصارهم وأمصارهم ،وأجناسهم وعاداتهم وتقاليدهم، ومستوياتهم الاجتماعيّة والفهميّة والنفسيّة، فهو صالحٌ لكلّ زمانٍ ومكان،ومُصْلِحٌ كلّ زمان ومكان، فمن ابتغى الهدى من غيره أضلّه الله ﷻ.

ولمنهج الدَّعوة إلى الله ﷻ مرتكزان رئيسيان: الحكمة والموعظة الحسنة.

الحكمة مؤسسة للعلمِ محكمة للدليل والحجة، فهي يقينية مطهّره عن احتمال نقيض.

والموعظة الحسنة مثوّرةٌ النفوس إلى أخذ ما جاءت بِه الحكمة، فليس كافيًا أن تؤسّس معرفة، بل فريضة أن تُغرَي القلوب بها.

الموعظة الحسنة هي سياق التثقيف في البيان القرآني بينما الحكمة هي سياق التعليم والتكليف في البيان القرآني، والذين يتبصرون آيات الذّكر الحكيم يدركون أنّه ما من آية من آيات الحكمة إلا وهي مكنوفةٌ بل وممزوجة بالموعظةِ الحسنة، وذلك من فيضِ رحمانيّة ورحيميّة ربّ من أرسله رحمة للعالمين ﷺ.

المنهجُ الأمثل في الدَّعوة وفي تعليم الناسِ الخيرَ أن تمتزج الحكمة بالموعظة. في الموعظة ما يلطِّف حزونة الحكمة، الموعظةُ الحسنة إغراء بنوالٍ



قامت الحكمةُ بصنعه وببيانه. فالعالم حكيمٌ، والدَّاعية مغرٍ بما ينتجُه العالمُ الحكيم.

هذان: الحكمة والموعظة تُنتجان حين يكونُ القلب المخاطب بهما معافى من داء الاستكبار والمجادلة وعشق الغلبة بالباطل، فإن كان القلبُ المخاطب مبتلى بذلك الدَّاء الوبيل، فثم طريقٌ أخر يجندله، يكسرُ شوكته، يعرِّيه أمامَ القلوب الأُخر، فلا يكون له بباطله أثرٌ فيها. يأتي سبيلُ المجادلة، والقرآن هنا لا يدعو إلى المجادلة على إطلاقها بل يقيدها بأنَّها مُجادلةٌ بالّتي هي أحسن. أي بالطريقة التي هي أحسنُ، فالمجادلة بالتي هي أسوأ لا تثمر إلا فسادًا ،وإفسادًا. وقد نهينا عن الإفساد في الأرض.

وقد جاء في سورة العنكبوت ما يقرر هذا﴿وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ (العنكبوت:٤٦).

الجدالُ بالتي هي أحسنُ إنما يكون حين لا يستجيب المدعو لأثر الحكمة والموعظة الحسنة لما ينشب في قلبه من شبهاتٍ، تسوقه إلى المجادلة والمجالدة استكبارًا، حينئذ ينتدبُ الدَّاعية إلى الجدال بالتي هي أحسن. وفي القرآن من مناهج الحجاج ما يمكن أن يؤسِّس علمًا يمكن الدَّاعية من أن ينفذ في سبيله حين يقُوم لهذا.

فهذه الآية جامعة لجميع أقسام منهاج الدعوة على نهج من الإيجاز بديع.



وإذا نظرنا إلى سورة (النَّحل) رأينا أنها قد حوت الأنواع في دعوتها إلى الوحدانية... وكانت في استخدامها للطرائق الآنفة تعمد إلى مزجها وتداخلها لتمازج وتداخل المخاطبين، فكانت تهدف إلى التأثير عليهم تأثيرًا كليًا شموليًا.

وإذا ما كانت الآية (١٢٥) قدْ بدأت بأمر النبي ﷺ بالدعوة بالحكمة والموعظةِ الْحسَنةِ، وختمت بالرفق في الجدال، فمن الأكمل التحدّث عن جانب القوة في الدّعوة، غير أنّه قدْ وجَّه الخطاب هنا إلى أتباعِ النبيّ ﷺ أمرا بالعدل والإحسان ولو مع أعدَى الأعداء والنهي في مجازاتهم إلا على وجه العدل فقال ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾.

لم يأت البيان هنا على نهجه في التي قبلها. هنالك قال﴿ادع﴾ وهنا لم يقل: وإن عاقبتَ، صرف الخطاب إلى الجماعة عن الخطاب إليه ﷺ، فهو الأصل في الدعوة، فوجه إليه الخطاب، ولكنّه ليس الأصل في المعاقبة، لأنه إلى الصّفح أميل، وعن المعاقبة أرغب، إنه ﷺ لرؤوف رحيم، وكذلك يحسن بالدّاعية أن يتأسّى، وكأنّي أستشعر أن المعاقبة بالعدل – لمن يستحق، ولمن تصلحه المعاقبة، وفي الناس من هذا شأنه ن فالمعاقبة العادلة قد تكون وسيلة من وسائل الدَّعوة، فهي أشبه بمرحلة ثالثة من مراحل الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى وأن الترتيب قائم على نهج الترقي:

من معاملة بالحكمة وموعظة حسنة إلى جدال بالتي هي أحسن إلى معاقبة عادلة.

معاقبة من يتصدّى للدعوة فيمنعها من أن تسير في طريقها لتبلغ النّاس بالحكمة والموعظة الحسنة – هذه المعاقبة العادلة نهج من أنهاج الدعوة أيضًا.

وذلك هو الترتيب التَّصاعدي المتجاوب مع منطق العقل وتأثرات النفس والشعور.

ويؤيد هذا أنَّ الآية (١٢٦) جاءت معطوفة بـ(الواو) مما يقضِي أن تكون الْمعاقبة العادلة مرحلة تالية مكملة للمراحل التي قبلها.

وهذه المعاقبة العادلة لا تكون إذا ما كان بملك الدعوة أن تنفذ إلى مرادها، ولذا حثّ على الصبر عند القدرة على المعاقبة العدل، وعلى تجاوز عراقيل من يستحقون المعاقبة، في هذا تربية منهجية للدعاة ألا يسلكوا سبيل المعاقبة العادلة إذا ما كانوا قادرين على أن يبلغوا الغاية، لأنَّ الصفح أليق بالداعية، ومن الصَّفح تتولد المقاربة أو المهادنة. فقوله ﷻ ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ فيه من الهدى ما يقوي عزيمة الدّاعية على التلطف، وعدم المسارعة إلى الحزونة في اجتياز الكُدَى والعراقيل.

ووجه الخطاب للرسول ﷺ قائلا: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ وكأنّه يلحظ الأمر في قوله﴿ادع) أي ادع واصبر، فأنت الأولى بهما معا، أما العقاب العدلُ فأنت الأرغب عنه ، وإن كان من حقك، ويحثه على الاستعانة والتسليم المطلق ، وذلك هو المقام المحمود الأمجد: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ثم



يبيّن له أنَّه معه إذا ما التزم بهذا المنهج الأمثل في الدعوة، وصابر وثابر، ولم يجعل للحزن عليهم أثرًا فيه، ونفى عن نفسه شائبة الضيق تسليمًا لما يريد الله ﷻ أن يكون، وهو القادر على ألا يكون لو أراد ذلك، وحتّى لا يتوهم أن هذه المعية خاصة بالنبي ﷺ، ويوقن أنَّ ذلك لكلِّ داعية التزم المنهج وصابر وثابر، صرف الخطاب، فقال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨ ﴾ ولم يقل له إن الله معك، بل عمَّم، فعبر عمن بكون الله ﷻ معهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ فكلُّ من كان هذا أمره فالله ﷻ معه، وأنت يارسول الله إِمامُ المتقين والمحسنين، فأنت الأولى بأن يكون الله ﷻ معك، ولذا أسرى بك ليريك من آياته الكبرى، وكنت الأحق بذلك والمختص به لأنَّك أنت السَّميع البصير الذي مُنح القدرة على أن يسمع وأن يبصر هذه الآيات الكُبرى التي لا يمكن أن يراها إلا من بلغ المنزل الأعلى في مقام العبودية لله رب العالمين، وكلُّ من عداك من النّبِيّين لم يبلغ في مقام العبودية ما بلغت، فكنت الأحقَّ بأن يُسرى بك، وتلك مثوبة كلِّ داعية يسلُك منهاج الدعوة الذي سلك النبي ﷺ وتخلق بأخلاقه فيه، مثوبتُه أن يُسرَى بروحه وعقله وقلبه إلى السموات العُلى من الكتابِ والسنة ، فيريه الله ﷻ من معاني الهدى في آيات ذكرِه الحكيم ما لم يكن لغيره أن يرى من تِلكَ المْعاني.



ملاك القول:إن بناء سورة (النحل) لعناصرها كان بناء يقدم للمسلمين – وهم فى مرحلة الدعوة المكية– المنهج التطبيقي للدعوة إلى الله ﷻ، فترى السورة قد أقامت حجاجها وتدليلها ودعوتها إلى وحدانية الله وقدرته... الخ .

في هذه السورة سمعنا البيان القرآن يُحطم شبهات المعارضين

رأيناها تخاطب العقل، وتوقع على أوتار النفس من بعد أن حطم عناد العقل .

رأيناها تأخذ بأيدينا في رحمة ومودة لتقدم لنا نهجا تطبيقيا بديعا في المزج بين طرق الدعوة إلى الله: الحكمة– الموعظة الحسنة – الجدال بالتي هي أحسن..المعاقبة العادلة والمعافاة عند الاقتدار.

مزجت بين كلّ هذا ووقَّعت في وقت واحد على أوتار عدة، وخاطبت كلّ مدرك من مدركات الإنسان: عينه بما تنظر فتبصر، وإذنه بما تسمع، فتعي، وعقله بما فيه يثق فيهدى، وقلبه بما يستنير فيرشد إلى الهدى، سلكت كل سبيل من سبل الدعوة، وطوعت كل أداة لبلوغ الغاية.

والتأمل البصير في خطة السورة في هجومها ودفاعها وترهيبها وترغيبها والميدان الذى جاهدت فيه والعدة التي طوعتها للغاية يكشف لك التنسيق البديع المعجز والتكامل والتفاعل والوحدة في أسمى صورها وأشكالها.

أما بعد:





فقد كان هذا البحثُ عامدًا إلى سبر غور فرض علمي قائم على تساؤلٍ مَشروع:

أيكون مضمون السّورة القرآنية ومقصُودها الأعظم هو المقتضي منهجًا معينا في البناء التركيبيّ للسورة، بحيثُ لا يصلح غير هذا المنهاج لحمل هذا المضمون والمقصود الأعظم لتلك السورة، فيكون المضمون والمقصُود هو المقتضي تشكيل البنية الكلية للسورة؟

إذا ثبتت صحة هذا الفرضِ فإنه يترتب عليه سؤال آخر:

إذا ما كان لكلّ سورة من سور القرآن مضمونها ومقصُودها الأعظم، وإن تقاربت بعض السور في ذلك فِي ظاهر الأمر أو فِي ظاهر النظر أفيعني هذا أنَّ مناهج البناء التركيبيّ لسور القرآن تتعدد بتعدد السور، وبذلك نكون مكلفين ببيان هذه المناهج التشكيلية للبنية الكلّية للسور، وهذا ما لم يقم لبيانه جمهرةٌ منْ أهل العلم ؟ ويترتب على هذا تساؤل آخر:

إذا كان هذا أفيعني أنّه لن يكون البتة منهاج بناء تركيبيّ لسورة ما صالحا لأن يحمل مضمون سورة أخرى، وإن قارب مضمون تلك السورة ومغزاها الرئيس.

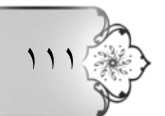


أحببت أن أسبر غور هذا كلِّه، فنظرت فرأيت ثلاث سورٍ تقاربت في تسميتها وتقاربت في مجال القول، وتتابعت في النزول تتابعها في التلاوة، ألا وهي سور (النحل) و(النمل) و(العنكبوت).

التآخي في التسمية جدٌّ ظاهر، وهو لافت للبصيرة، من أنَّ اسم السورة فيه آية على مضمونها ومقصُودها، ودلالته على ذلك دلالة جد لطيفة، ومن لطفها نجد غير قليلٍ من كبار أهل العلم يعلل التسمية بأنَّها سميت بذلك لورد الكلمة فيها ،وهذا تعليل غيرُ علميّ لأنه ليس بمطرد،والاطراد أصلٌ من أصول علمية القول..

ونجد السور الثلاث تجري في موضوع الدّعوة إلى الله ﷻ، ورأسُ الدعوة إليه الدَّعوةُ إلى وحدانيَّته.

وقد تبيَّن لي بمزيدٍ من المراجعة للسُّور الثَّلاث أنَّ سُورة (النَّحل) ترسُم معالمَ منهجِ الدَّعوة إلى الله ﷻ: إلى وحدانيته. وأنَّ سورة (النَّمل) تبيّن الأدوات اللازم تحقُّقها في الدّاعية: أداة العلم والحكمة،وأنَّ سورة (العنكبوت) ترسُم أخلاق الممارسة في الدعوة أي الأخلاق التي يجب أن يتَّسم بها الدَّاعية من الصبر والمصابرة والإخلاصِ لله ﷻ وتحمل المشاق واستعذابها.



ولما كان المنهج مقدَّما على الأداة، والأداة مقدَّمة على أصول المُمارسة جاء ترتيبُ السُّور في النُّزول والتِّلاوة على وفق ذلك: (المنهج/ النحل- الأداة/ النمل- الممارسة / العنكبوت)

واصطفيت سورة (النَّحل) للنظر في موضوعها ومضمونها ومقصودها وما اقتضاه من منهاج البناء التركيبي للبنية الكُليّة للسورة، فانتهى النَّظرُ إلى أنَّ موضوعَ ومضمونَ السّورة ومغزاها هو بيانُ منهاجِ الدَّعوة إلى الله ﷻ، فهي تقدّم واقعًا عمليًّا في الاستدلال على وحدانية الله ﷻ وفي نقضِ شُبهات المعاندين وتقويضها، وقد تبيّن للبحثِ أن هنالك علاقة عضوية بيْن مضمون سورة النحل، ومنهاج بناء صورة معناها الكلي(المعنى النّصّي/ السُّوري)

وقد كانت هذه الدراسة ذات اعتناء بمستوى البناء التركيبي: (بناء النصّ / السُّورة)، ولا تنشغل كثيرًا بالمستويات التي من دون هذا المستوى في منظومة مستويات بناء صُورة المعنى القرآني، فالهَمُّ الأعظم للدراسة استكشاف العلاقة بين البيان النظري لمنهاج الدعوة كما رسمته آية سورة (النحل): ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ ﴾ وما اتخذته السورة من بيان عمليّ يتمثل في منهاجِ البناء التركيبيّ لصورة المعنى القرآني في هذه السورة. وبهذا تسعى



الدِّراسة إلى تقديم منهاج جديد في تأويل البلاغة القرآنية يَتجاوزُ دائرة النَّظر الجزئيِّ إلى دائرة النظر النّصّي على نحو ما هدَى إليه الأئمة من علمائنا.

وتبيّن له أيضًا أنّ العلاقة الوظيفية بين سُورة (النحل) وسورة (النمل) وسورة (العنكبوت) علاقة جدّ وثيقة، وأنّ هنالك تلاؤمًا بديعًا بين البعد الوظيفيّ لكلّ سورةٍ من هذه السّور الثلاث، ومغزاها، وموقِعِ كلٍ، وأن هنالك تناسبًا بديعًا بين الابتداءِ بسُورةِ النحل والاختِتامِ بِسُورة (العنكبوت) وأنّ آية المفتتح في سورة (النحل) قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، وآية المختتم سورة العنكبوت قَولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ إنما هو من بديع النسق القرآني، كمثل ما هو قائم بيْن الآية المختتم سورة (النحل): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ والآية المختتم سورة العنكبوت: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ وقد تبين لي من خلال هذا البحث أنَّ معالم البلاغة القرآنية لا تظهر ظهورًا مُفْحمًا فيما استفرغ السابقون زمانهم وجهدهم في الوفاء به، لنقف عند ما وقفوا بل هم بما قاموا به مهّدوا لنا الطريق لنكمل بالبناء على ما قاموا به.

الدَّرس البلاغيّ في معالم بناء الجملة والآية والآيتين لا يحقِّق لنا العرفان الأمثلَ والأمجد ببلاغة القرآن ؛ لأنّ بلاغة القرآن يجبُ أن تكونَ فيما لا يلتقي معها فيه أيُّ ضرب من ضروب البلاغات البشرية، ولا في أيِّ



مستوًى من مستويات التقارب، ألا ترى أنَّ أساليبَ بناءِ الجملة والجملتين والجمل في القرآن يقاربُه بعضَ المقاربة بناءُ الجملة والجملتين والجمل في عَليِّ البيان البشري البديع.

الجاحظ كان يقُول إنَّ العرب تستطيع أن تقول مثل (الحمد لله رب العالمين) أي من جهة النظم النحوي، فبناء جملة من مسند إليه معرف بـ(أل) تعلق به جار ومجرور، ونعت المجرور بمضاف ومضاف إليه أمر غير قليلٍ في بيان العرب. بل إنَّ العربيَّ يمكنهُ أن يقول مثل إنا أعطيناك الكوثر من جهة النظم النحويّ، ولكنه يعجز أن يكون مضمون قوله هذا من قبيل مضمون قول الله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لله رب العالمين ﴾، ﴿وإنا أعطيناك الكوثر﴾، لأنَّ هذا لا يقُوله إلا الله ﷻ ، فهو معنًى إلهي لا يتأتى من غير الله ﷻ ، ولذلك كان مناط الإعجاز ومعدنه ومنجمه عندي ليس النّظم من حيثُ هو نظم، بل من حيثُ نوع المعاني المنظومة، وليس من حيثُ نظم المعنى، لأنَّ المعنى إذا لم يكن إلهيا، وبلغ في نظمه ما بلغ فلن يكون معجزًا. إنَّ إعجاز القرآن في أن معانيه إلهية لا بشرية، أما طريقة النظم في جملتها فهي مما لها نظير في كلام العرب، فعجزُهم آت من قبل نوع المعنى أولاً، ثم من قبل بشريتهم ثانيا وليس آتيًا أولاً من نظم المعنى وحده، والله ﷻ تلطَّف بهم حين تحداهم، فلم يطلبْ منهم معاني من نوع معاني القرآن بل تجاوز ذلك إلى مرحلة



أدنى: تحداهم أن يكون نظم معانيهم البشرية في الإحكام قريبًا من إحكام نظم القرآن معانيه الإلهية، فإذا عجزوا عن ذلك، فعجزهم عن أن تكون معانيهم قريبًة من معاني القرآن أشدُّ، ومن ثمّ لن يبلغوا في نظم معانيهم مستوًى في إحكامه ما يقاربُ مستوى نظمِ القرآن معانيه الإلهية إحكامًا. هذا هو ما يتبيّن لِي.

الله العدل لم يطلب منهم البتة أن يأتوا بنظم معانيهم على مثل نظم القرآن. كلاّ هذا لا يكون ؛ لأنَّه إذا ما اختلف المعنيان اختلف ضرورة نظمُ كلٍّ، فالتحدِّي في أنَّ يبلغوا في نظم معانيهم البشريةِ حدًا لا يطيقه غيرهم، كما بلغ القرآنُ في نظم معانيه الإلهية حدًّا لا يكونُ من غير الله ﷻ .

ومن ثمَّ فإنَّ المعنى هو الذي يقتضي منهاجَ تشكيل البنيَة الكليّة له ممثلا في البناء التركيبيّ للسورة.

وهذا هو الذي تتحقَّقُ به خصُوصية البلاغة القرآنية، وليست خصوصيتها متحققةً ببلاغة الجملة، والجملتين والآية والآيتين، بل ذلك متحقّقٌ ببلاغة البناء التركيبيّ للسورة، فهو الأولى بأن نبدأ سيرنا إليه لنكمل مسيرة سلفنا، فنكون بحق خير خلف لخير سلف إن شاء الله تعالى.

والله وحده المسؤول أن يحسن الخاتمة العقبى، وأن يستر المسير والمصير إنه نعم المولى ونعم النصير وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه ورسوله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمته،والحمد لله رب العالمين.



ثبت أهمّ المصادرِ والْمراجع

١) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، قراءة وتعليق محمود محمد شاكر، ط(١) مطبعة المدني، نشر الخانجي - القاهرة.

٢) تراث أبي الحسن الحرالي في التفسير، جمع وتحقيق محمادي الخياطي – الرباط – المغرب.

٣) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري تحقيق أحمد شاكر، ط/١٤٢٠٠ : مؤسسة الرسالة

٤) دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجاني. قراءة محمود شاكر. ط: المدني.نشر الخانجي بمصر.

٥) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله الزمخشري، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٦) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبدالشافي محمد، ط(١) دار الكتب العلمية - لبنان - ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٧) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، ط: دار الكتب العلمية - بيروت – ١٤١٥.

